كتاب الهلال

ثائرون

تأليف

محمود تيمور



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٤٦ ـ جادى الاولى ١٣٧٤ ـ يناير ١٩٥٥

No. 46 — January 1955

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

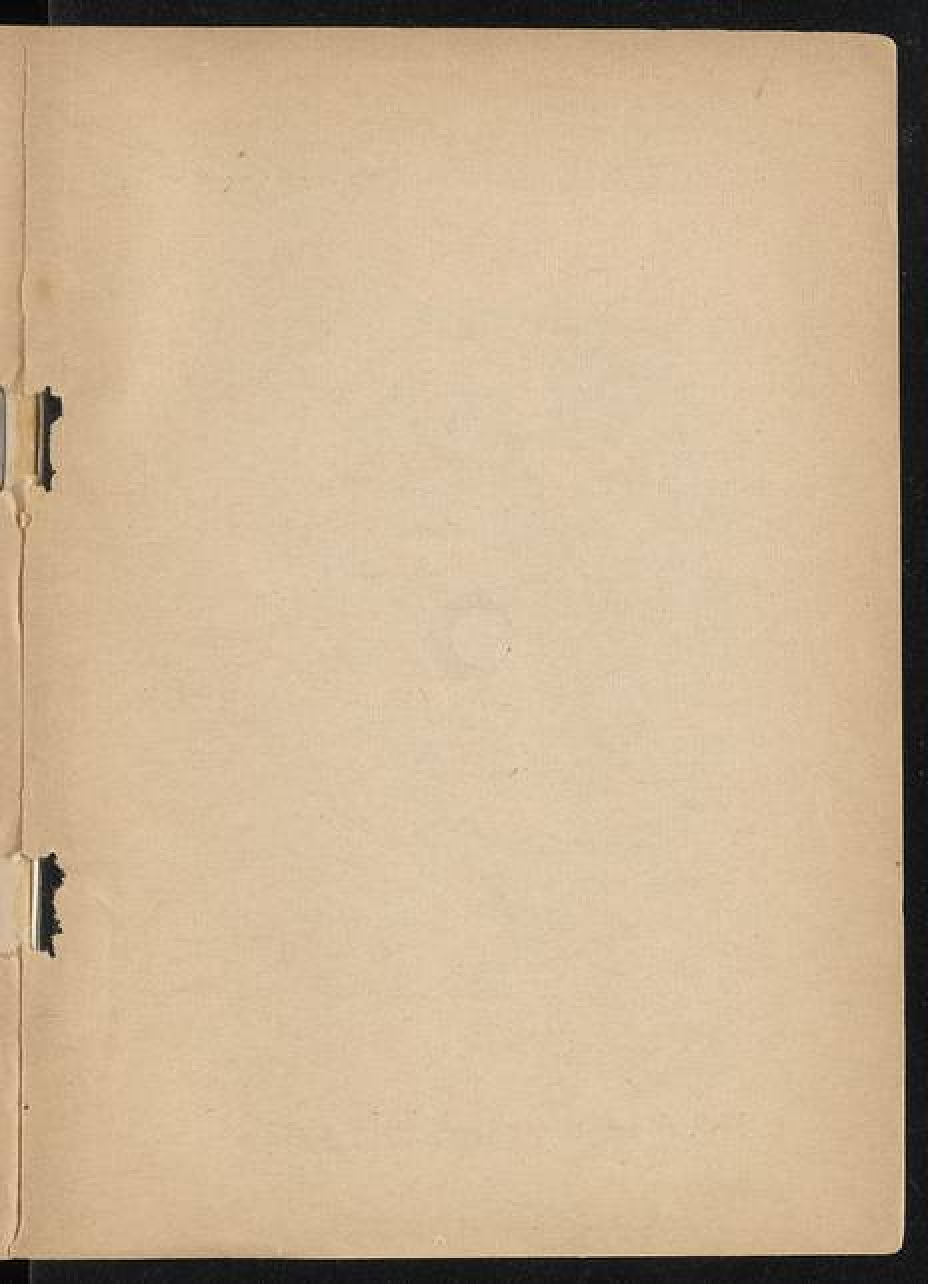
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا او لبنانيا ـ الحجاز والعراق والاردن وليبيا ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا او ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



ثائرون

تأليف

محمود تيمور

Thàirùn

مقدمة المؤلف

دارت بين طائفة من الكتاب مساجلات حول الأدب : هل هو تعبير عن النفس فى محيطها الخاص ، او هو تعبير عن الحياة فى محيطها العام ؟

وعندى ان القول بأن الأدب تعبير عن الحياة قول كله حق وصدق ، وما اولاه بأن يرتفع عن مدار الجدل والنزاع

ما قيمة الادب اذا لم يكن تعبيرا فنيا بالقول او بالكتابة عن الحياة فى اوسع معانيها ؟

اذا قال قائل بأن ثمة أدباء يعبرون عن انفسهم كان فى قوله غلو واسراف ... فالاديب الفنان يستلهم من الحياة فنه ، ثم يعبر عن الهامه بصيفته الخاصة وطابعه المتميز . وكلما كان الأديب اعمق تغلغلا فى صميم الحياة ، واصدق تعبيرا عن الالهام ، كان عمله اقوم واثمن واخلد

والأدب فى ظاهره غاية ، وفى جوهره وسيلة ...

هو غاية،لان الأديب الفنان فى اغلب حالاته يعبر عن حياة تعتلج فى نفســه ، لا يملك الا أن يعبر عنها فى صراحة وخلوص

فالأدب تصوير لانتفاضة نفس الأديب اثناء استجابته للحياة من حوله ، وانت فقد يسرك شيء فتضحك ، ويحزنك شيء فتبكي ، وما تعبير الأديب الا لون أصيل من ضحكة الطروب او بكاء الحزين !

من هذه الوجهة يمكن ان نعد الأدب غاية ...

ولكن الأديب يسمو ابدا بمشاعره الى خير الانسانية حين يعمر قلبه الحب الشامل ، وتمتلىء نفسه بفتنة الجمال المطلق ، فهو اذن يرمى - واعيا او غير واع - الى اهداف معينة ... وطوعا لهذا يكون الأدب وسيلة لاصابة تلك الأهداف على وجه عام ، وهى التسامى بالحياة وبالانسانية الى آفاق اعم خيرا وأكرم مثلا ...

على انه قد يكون الأدب - من زاوية خاصة - وسيلة ظاهرة لخدمة قضية من قضايا المجتمع ، او لعلاج مشكلة من مشكلاته ، وذلك فى بلد مخصوص ، فى زمن محدود ... وهنا يتوقف النجاح فى العمل الفنى على مدى استجابة الأديب لهذه المشكلة او تلك القضية ، ومبلغ ما له من صدق التأثر ، وقوة الأداء ... ومتى استطاع الأديب ان يحيا فى صميم القضية الاجتماعية او المشكلة القومية تيسر عليه ان يعبر عنها تعبيرا فنيا اصيلا يدامج اعراق البشرية ويمازج حقائق الحياة

حتم اذن أن يتوافر بين الأديب وموضوعه تلاؤم وائتلاف فى جو من الحرية الطليقة ، لا فرض فيه على الأديب ولا الزام ...

فكون الادب غاية ، وكون الادب وسيلة ، قولان يترادفان مادام الأديب موفور الموهبة ، عميق الحس ، صادق الالهام

اقدم هذه الخطرات بين يدى مجموعة من القصص ، كانت صدى لما تجاوب فى نفسى من شئون الحياة التى تضطرب من حولى ، واضطرب انا فى عبابها بقدر قليل او كثير ... وكل قصة من هذه المجموعة تمثل جانبا من هذه الحياة ، وتعبر عما يجيش به قلب مؤلفها ، مستجيبا لما فيها من مشاهد واحداث

ولا يتسع المجال هنا للحديث فى كل قصة من قصص هذه المجموعة ، ولكن يطيب لى ان اجمل القول فى أولى تلك القصص ، فهى تصور عصرا من اخطر عصور تاريخنا الحديث ، عصر « ما قبل الثورة » ...

اولئك فئة من الشباب الحائر ، يحيون فى عهد مظلم يتسم بالفساد والانحلال ، ولكن جوانحهم تنطوى على رغبة مستعرة فى انقاذ الوطن مما يعانيه ، وفى نفوسهم تضطرم روح الثورة ... الاحداث الشداد تنزل بهم ضرباتها ، وتيار الفساد يجرفهم فى أمواجه ، فيوشكون ان يفقدوا نزعة المغالبة والكفاح ، ولكنهم يطاولون الزمن ، ويضطربون فى الغمار ، تارة نراهم مهزومين متخاذلين ، وطورا يتناهضون ويتواثبون ، وهم يعدون العدة لخوض المعركة ، واصابة الاهداف . وانهم لكذلك فى حيرة واضطراب ترجج بهم الأيام ، اذا هم يأنسون ضوءا فى سماء حياتهم ،

رائع القوة والمضاء ، وان هذا الضوء الوهاج ليعيد اليهم الثقة بانفسهم ، فينبعثون للعمل ، مسترشدين بهديه ، لاقامة صرح الوطن الجديد

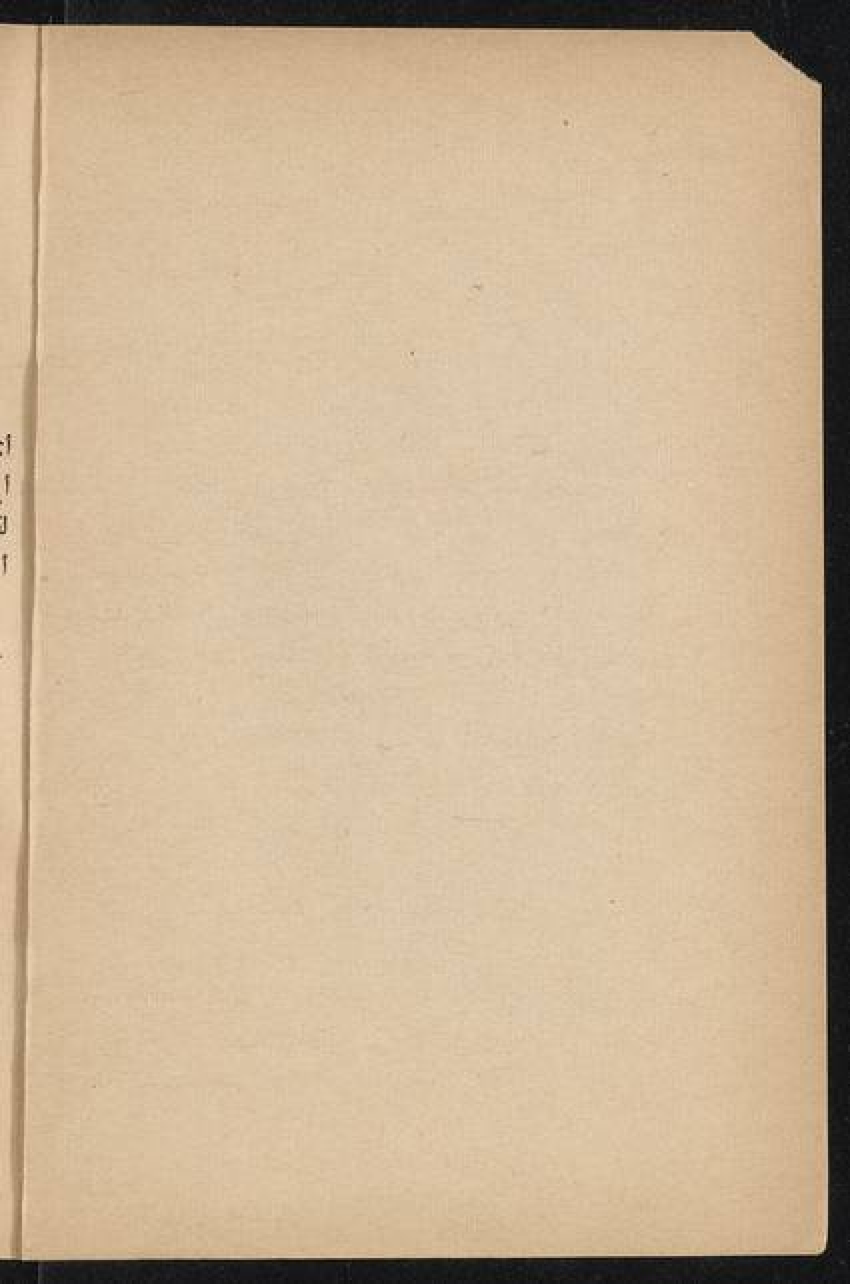
وفى بقية القصص صور مختلفة من حياتنا المصرية تنطوى على أهداف شتى ، وارجو ان اكون بتقديمها قد اسهمت فيما هو مفروض على الاديب المعاصر ، من مسايرة وعى الأمة ، والتعبير عن اهدافها الرفيعة وآمالها الجسام

محمود تيمور



ثائرون

فئة من الشباب الحائر ، يحيون فى
عهد فساد وانحلال ، وبين جنوبهم
روح الثـــورة ، ولكنهم يظلون فى
حيرتهم ، حتى يتلقوا ذلك الضــوء
الوهاج ، يهدى لاقامة صرح الوطن
الجديد



— ١ —

القاهرة ، اول فبراير سنة ١٩٥٢

قبل ايام قصار شب حريق « القاهرة » ، ولسنا ندرى اى يد آثمة دبرت هذا الحريق المشئوم ؟ ما اكثر الشائعات ! ايا ما كان الامر فهذا حدث الأحداث فى الحقبة الراهنة . لقد نبه الاذهان الى ان حالة القلق التى تطبق علينا يجب ان تكون لها نهاية . هذا نذير ، وانه لنذير جد خطير !

منذ ذلك اليوم النكد ، ونحن نعانى من الهم ما نعانى : جو خانق ياخذ بالانفاس ، ورهبة جياشة تفعم الصدور ، وحيرة دائبة تقسو على الاعصاب

الى اين المساق ؟ لقد استبدلت وزارة بوزارة ، وربما كانت الوزارة الجديدة ارشد من تلك التى تولت ، ولكن ماذا فى مستطاع الوزراء الجدد ان يفعلوا ؟ اهذا كل مايجب أن يكون بعد حادث الحريق ؟!

كلما فكرت فيما نحن فيه ، تلبدت فى راسى من التشاؤم غيوم ...

لقد مضت شهور ، والبلد كله كانه مرجل يغلى فوق نار

ثمة حرب عصابات عن كثب من القناة ، موجات لا تكاد تشتد حتى نراها ترتد ، لقد استبد بالناس الحنق ،

والتهبت مشاعرهم ثورة على الاجنبى المحتل ، فلم يكن فى مقدورهم الا ان يقضوا مضاجعه ، حتى لا يجد مفيضا من الرحيل . وانى له البقاء فى بلد يمقته فيه أهله ، ويبيتون له اسباب الاقلاق والترويع . ولكن اليست تلك الحرب الخفية الى حين ؟ الا يسرع اليها الكلال والفتور ؟

شدما تضـــــاربت الاقاويل فى شان اولئك الفدائيين الاحرار ... كيف تتألب منهم الجماعات ؟ ومن اين تواتيهم الذخيرة والعتاد ؟ واى امرة ينضوون تحتها فى هذا الجهاد ؟ تلك ألغاز لا تنكشف ضمائرها فى وضح النهار !

قبل ذلك الحريق كانت كليات « الجامعة » مهوشة يمور فيها الاضطراب ، ولكنها مفتحة الأبواب تواصل الدرس على اية حال ... كنـــا نحن الطلاب حشـــودا فى المدرجات او الساحات ، نخطب او نناقش ، وربما افضى بنا خلاف الراى الى مشاتمة وعراك ...

اما اليوم ، فالكليات مغلقة ، والطلاب اشتات ، والحيـــاة جهامة وعبوس ، والقيود الثقال مفروضة على الســـهر والتجوال والاجتماع

يا لهذا الضيق الذى يحاصرنى من حيثما اتلفت ، يزيد من حدته على أن ينتابنى سعال ، سعال خشن تنقض منه الضلوع ، وامى بجانبى تلزمنى ان انفذ ما نصح به الطبيب ، وتنهانى ان اريم الفراش ، وتؤنبنى كلما لمحت منى بوادر الانطلاق

الزم فراشى ؟! الطبيب محق ، وامى على صواب ، ولكن

كيف لى ان احتمل قيدا جديدا فى هذه الأيام السود ؟ اليس حسبى ما يكبلنى من قيود ؟ ماذا يراد بى ؟ اكون خرقة مهلهلة يوسدونها الفراش ، ويتركونها تبلى على مهل ؟!

— ٢ —

الثانى من فبراير سنة ١٩٥٢

نفثت دما صباح اليوم ، فاخفيت النفاثة فى منديلى ، ولم اره امى ، ماذا فى الأمر ؟ اتكون حالتى الصحية لا تبعث على الطمانينة ؟ ولكن الم انفث دما قبل هذه المرة ؟

اذكر انى منذ شــــهر ، كنت اعتلى احد المقاعد ، بين الطلبة ، مسترسلا فى الخطابة ، فامتلكتنى سعلة ، واخرجت المنديل اتفل فيه ، فاذا هو يتلقى نفاثة حمراء ، وراعنى ذلك اول وهلة ، ولكنى تجلدت ، وتابعت القول ، بيد ان الطلاب ثاروا بى ، ولم يرقهم قولى ، فعجلت من فورى الى الدار ، متخاذل الأوصال ، وانتحيت بامى ناحية اريهـــا المنديل ، وانا اقول لها ضائق النفس :

ــ ساموت . . . ساموت . . . لا خير فى هذه الحياة . . . سارحل عنها غير آسف !

فاخذت امى تلاطفنى ، ثم احتضنتنى ، وقبلتنى ، وهى تقول :

ــ ما هذا القول يا « يسرى » ؟ انت تؤثر الموت على الحياة ؟ لماذا ؟ لأن انحرافا يسيرا الم بصحتك ، فى مقدورك الخلاص منه اذا اذعنت لمـا يقضى به الطبيب ؟ قليل من

الراحة كفيل بان يرد عليك العافية موفورة كما كنت من قبل

فصحت بأمى :

ــ انى انشد الموت ، لا اجد من حولى شيئا يبعث على الرضا . . . انى اختنق . . . انى هالك لا محالة !

ــ كيف ذلك ؟ لقد صدقنى الطبيب فى وصف حالك ، اكد لى الا خوف عليك متى عنيت بنفسك . . .

ــ اخبرينى يا اماه ، ماذا فى الدنيا جدير ان احيا من اجله ؟

ــ كل شىء فى دنياك جدير بالحياة . . الحياة جميلة يابنى حسبك ان تحيا من اجلى ، لاحتضنك ، لأقبلك ، لأراك تنمو امامى وتزدهر ، لأشهدك فى قابل ايامك رجلا عظيما . . . كأبيك !

ــ ابى ؟! . . . لقد كان عظيما حقا ، واين انا منه ؟ لقد كان صلبا مكافحا ، وما حظى من الصلابة والكفاح ؟

ــ لتكونن مثله ان شئت . . . اعلم انى احبك ، لانك بضعة منه ، لأنك متمم له ، لأنك مثاله . . لأنك هو عينه

وتلقت وجهى بين يديها ، وهى تحدق الى بعين متهومة ، وتقول :

ــ انت هو . . . هو « مجاهد السمرى » ابوك . . . لا اعده قد مات وانت على قيد الحياة . . لا تغيب عنى شمس أبيك ما دمت انت يا « يسرى » مشرقا امامى !

وتعانقنا معا فى صمت جياش . . .

— ٣ —

الثالث من فبراير سنة ١٩٥٢

ابى ... ابى ... اكون على غراره ؟ افى طوقى ان اسير سيرته ، واحوز بعض امجاده ؟ انا الشاب الواهن ، ذو الأعصاب المختلة ، والتفكير المضطرب . انا الذى احس الضيق بكل شىء : الضيق بالدرس ، فقد اخفقت فى امتحان العام الماضى ، وهانذا اعيد السنة الأولى بالكلية ، والضيق بالمطالعة ، فما قرات من الكتب الا النزر اليسير ، والضيق بمواصلة العمل فى جد ومثابرة ، فما اذكر انى قمت بشىء افخر به ...

من اين لى ان اكون مثل ابى « مجاهد السمرى » ، ذلك الذى عمل مع « مصطفى كامل » ، ونفى مع «محمد فريد» وعاد مكافحا مع « سعد زغلول » ، فعانى مذلة التشريد ، وذاق مرارة الاعتقال ، واطبقت عليه ظلمة السجن ، ونالت منه طعنات الحراب الانجليزية فى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وظلت هذه الطعنات وسمة بل وساما على جسده بقية ايامه على ظهر الأرض

ما اتعسنى اذ لم تتح لى الأقدار ان احيا معه الا سنوات لا تزيد على الثمانى ، وقد خلفنا بعد ذلك وهو فى أوج رجولته ، وانا فى سن غريرة ، والبلد احوج ما يكون لأمثاله المجاهدين

لست انساه ... مربوع القامة ، مستدير الوجه ، تتالق فى عينيه نظرات نفاذة

كنت اخشاه ... اخشى صوته الجهورى العريض ، ولكنى ما زلت اذكر حنانه لى،وهو يمسح على راسى ويقبلنى

جالت بخاطرى هذه الافكار والذكريات ، فنهضت من فورى الى تركة ابى من اضاميم الصحف والمجلات والصور تلك التى كان يحرص عليها اشد الحرص ، ويعنى بها كل العناية ، ويرى فيها سجلا للوثبة الوطنية منـــذ فجرها الأول ... انها تحوى مواقفه الرائعة ، وخطبه الحافلة ، الى جانب المواقف والخطب المأثورة عن الزعماء والأبطال

جلست الى تلك الذخيرة اتعرف واتصفح واقرا ، ومن حولى تتكاثر الذكريات وتتداعى ، حتى تألقت منها صورة كاملة لبطولة الجهاد وصدق الكفاح ...

وفيما انا على هذه الحال ، اذ سمعت خفق اقدام ، ورفعت راسى ، فاذا صديقى « نزهى » يقدم على ، ويبتسم لى ، فقمت له احييه ، وأصافحه ، فابتدرنى يقول :

ـ انت بين هذه التلال دائما لا تمل ...

وانكب يشاركنى فى التصفح والمطالعة والتعقيب ، ثم اثنينا نترشف القهوة ، وطفق يقص على ما تساقط اليه من انباء واحاديث

السلطات الحكومية جادة كل الجد فى القبض على المشاغبين الذين تحسب انهم اسهموا فى الاحراق وما تبعه من سلب وانتهاب ، انها تجمع منهم العشرات فى اثر العشرات ، وتمهد طريقهم الى القضاء ... احقا ان اولئك هم اصحاب الحريق الأصلاء ، أليسوا هم شراذم من غمار الجمهور ؟ قل انهم

صعاليك ، او قل ان فيهم صعاليك ، ما كادت تلوح لهم فرصة الاختطاف والعبث والفوضى حتى اوغلوا ، ولكنهم على اية حال اغرار ، وهم صرعى ما يكابدون من سوء العيش ...

اين الرءوس الكبيرة التى دبرت ذلك الشغب الخطير ؟ ان تلك الرءوس هى التى ترسم الخطط ، وتتيح الفرص ، وتتخذ من الاوشاب والمستضعفين مخالب القطط ، ثم تستكن الرءوس بمنجاة من العيون ، وتدع لأولئك الأغمار والهمل ان يسقطوا فى الشباك والاشراك كما تسقط الفراشات على ضوء اللهيب !

وانبرى « نزهى » يتحدث ، والسخط بالغ منه كل مبلغ ، وكنت اصغى اليه ، لا اقطع الحديث عليه ، وكان صديقى هذا طلق اللسان ، قوى المنطق ، يكبرنى باعوام ثلاثة ، وهو يعمل فى الصحافة ، تارة يكتب بعض النبذ ، وطورا يقدم بعض الرسوم الساخرة ، ولم يكن موفقا فى عمله الصحفى ، ولذلك كان مقترا عليه فى الرزق ، وكثيرا ما احس الضنك والعسر ، بيد انه لا يبالى ذلك كبير مبالاة ، فليس هو بذى اسرة يعولها ، وليس هو بذى طموح الى كسب موفور

وقال لى « نزهى » فيما قال :

ــ اتطيب لك هذه الحياة ؟ ارايت اليهم كيف يزجوننا فى البيوت عند غيوب الشمس كالأفراخ ؟ كيف احبس نفسى سواد الليل كله فى حجرتى المتضايقة ، وقد الفت ان اسهر

حيث اشاء ؟ اريد ان اتنفس فى جو الحرية والطلاقة ، اريد ان اجتلى الطبيعة فى سجوة الليل ... !

ـ وماذا انت صانع يا « نزهى » ؟

ـ لقد دبر لنا « عبد الحكيم » حيلة طريفة ، لعلها تروقك فنقضى الليل كما نريد فى غير محبس

ـ اين ؟

ـ فى قهوة « السويفى » على مدخل قرية « الهماميل » ... انها أول قرية لا يتناولها قانون حظر السهر خارج « القاهرة »

وكنت اعلم ان هذه القرية هى مسقط راس رفيقنا « عبد الحكيم » ، وقد اصطحبنا اليها فى العام الماضى مرات فذهبنا اليها راجلين ، من طريق « الزمالك » ، وقضينا هنالك فى قهوة « السويفى » بعض الأصائل والأمسيات ، وكانت هذه القهوة غاية فى التواضع ، مشرفة على النيل ، فاذا اخذنا مجالسنا فيها شرعنا نكرع اقداحا من شراب الحلبة يجيد صنعها « الحاج محمد السويفى » صاحبالقهوة نفسه ، وكنا نمضى الوقت فى نقاش سياسى موصول الحلقات او نصغى الى الحديث الشائق الذى كان يمتعنا به « عبد الحكيم » فى شان مغامراته ومناوشاته اثناء المواقف القومية على راس عصبة من أمثاله الوطنيين الاحامس ، والفدائيين الاحرار . فاذا انخرط فى حديثه ، وعلا صوته ، واشتدت حماسته تجمع من حولنا صاحب القهوة « السويفى » ، وغلامه « فلافل » ، ومن يتفق حضورهم من اهل القرية

يستمعون الينا فى كثير من الشغف والاهتياج

وما كاد رفيقى « نزهى » يعرض على فكرة السهر فى تلك القهوة ، حتى تنفست الصعداء ، وقلت :

ــ فكرة طيبة يا « نزهى » ... ولكن متى نذهب اليها ومتى نعود ؟

ــ نخرج من منطقة « القاهرة » قبيل السابعة ، ونعود اليها بعيد الفجر

ولقينا « عبد الحكيم » عند جسر « الزمالك » ، قبل موعد الحظر ، فسايرناه على ضفة النيل ، نترنم ببعض الأهازيج

وكان « عبد الحكيم » عظيم الجرم ، ضخم الرأس ، حديد النظرات . وبينما هو بجانبى يتغنى ، اذ أمسك عن الغناء والتفت الى ، مربتا كتفى ، يقول :

ــ ما هذا يا « سمرى » ؟ كيف تخرج لقضاء الليل فى الطريق وانت مريض ؟ كيف طوعت لك نفسك ان تترك الفراش ؟

فأجبته أتحدى :

ــ صحتى حسنة ، اريد ان اتنشق الهواء الطلق

ــ انى احب الشجاعة والاقدام .. ولكن ...

وانبعثت من فمه ضحكة شوهاء ، فنظرت اليه متفحصا فاستكمل قوله :

ــ ولكن لا اريد ان اعود بك الى « القاهرة » محمولا على عاتقى !

فصحت به ، وانا اكظم غيظى :

ـ سنرى اينا يحمل صاحبه ...

فضرب كتفى يقول :

ـ لا باس ... عندما تخور قواى ، ساتسلق كتفيك كانى طفل رضيع !

وارسل ضحكته الشوهاء ، ثم استانف الغناء

ورفيقنا « عبد الحكيم » أعلانا سنا ، واوفانا تجربة ... خبر الدنيا ، وعرك الحياة ، فقد اباه وامه وما برح فى الصبا الباكر ، وتراخت صلته باهله ، فلم يكن له من عائل . ومن ثم شب طليقا لا يخضع فى شانه لأمر او نهى . وهو فدائى متمرس ، عمل فى حرب « فلسطين » ، ثم عمل فى معركة القناة ، واصابته جراح كادت تقضى عليه . وقد انقطعت به سبل التعليم ، اذ حاول النجاح فى امتحان الشهادة الثانوية ، فاخفقت محاولاته ، فثار على المدارس والامتحانات واخذ يردد :

ـ الحياة لا تطلب منا علم الكتب ، وشهادات المعاهد ، وانما تطلب منا القلب الجسور ، والساعد الأشد ...

واهتدى صاحبنا الى بعض الجماعات السرية ، فانضم اليها ، وشارك فى أعمالها ، ولكنه ما عتم أن انصرف عنها ، وهو يقول :

ـ انا لا اقبل أن اعمل لحساب المستغلين ... اريد ان اعمل فى غير فرض على .. ماذا يظنون بى ؟

ولم يكن يستقر له قرار ، فكان ينظم بعض العصابات ،

ويبث الدعوة هنا وهنالك ، ولا يفتأ يعمل بكل سبيل

وعلى الرغم مما فيه من فظاظة وعنجهية ، وما يبدو من اعتزازه بقوته وسطوته ، كنت اكبر منه الجراة والتحدى وامجد فيه الحماسة والاقتحام

ومن عجب ان ثالوثنا ـ على تآلفه ـ يجمع بين شخصيات متنافرة ، الأولى تتميز بالضخامة والتهور ، والثانية شخصية فنان مفتون بالطبيعة ، يعبر عن افكاره واهوائه فى مقالات أو رسوم ، والثالثة الأخرى شخصيتى ... مريض مهدوم البنية ، يحاول ان يكون شيئا مذكورا فى هذه الحياة !

ولكن هذا الثالوث ، وان تنافرت مظاهره البادية ، فان ثمة رباطا متينا يلم شمله ، ذلك هو اننا جميعا نألم اشد الألم لما يتفشى مجتمعنا من اختلال ونقص ، ونرغب اصدق الرغبة فى ان نضطلع بعمل موحد فى سبيل رفعة هذا البلد الامين

وبغتة سكت « عبد الحكيم » لا يغنى ، ونحن نسير والنيل فسكتنا معه ، واذا هو يقف ويظل على صمته لحظات ،وقد تجهمت ملامحه ، ثم يواجهنا بقوله :

ـ ما بالنا نغنى ؟ أليس الغناء دليل فرح وارتياح ؟ مالنا وللغناء ، والبلد فى تعاسة وشقاء ؟

فتصدى له « نزهى » يجيبه :

ـ اننا نتضاحك ونتغنى ، خشية ان تتعالى اصواتنا بالعويل والانتحاب !

فقال له « عبد الحكيم » :

ـ الانتحاب والعويل ؟ اى انتحاب واى عويل ؟ أتسوغ لنفسك أيها الفنان العظيم ان تبكى ؟ افى مأتم نحن ؟

فقال « نزهى » :

ـ ماذا تريد ان نفعل اذن ؟ اننا بين اثنتين ، فاما طرب وابتهاج ، واما حزن واغتمام ...

فصاح « عبد الحكيم » :

ـ كلام فارغ ... انت يا « نزهى » لاتحسن الاالاعتراض ... لا تجيد الا الجدال ...

فضحك « نزهى » وهو يقول :

ـ حمدا لله على أن هناك شيئا اجيده ، اما انت فماذا اجدت من شيء ؟!

فوقف « عبد الحكيم » فجاة ، واستدار الى ذراع « نزهى » يعتصرها فى عنف ، وهو يجابهه بقوله :

ـ اتجرؤ أن تسألنى ماذا اجيد ؟ الا تعرف مواهبى ؟ أليس لك علم بقيمتى ؟

فاستخلص « نزهى » ذراعه من قبضة صاحبه ، وهو يجيب فى لباقة :

ـ آمنا يا سيدى أن لك مواهب ، ولكن كما يقول المثل : سبع صنائع فى ايدينا ، والهم بائن علينا ... !

فلم يعقب « عبد الحكيم » على قول « نزهى » ، وواصل سيره ، وخيم علينا الصمت ، ثم سمعنا « عبد الحكيم » يتصايح بقوله :

ـ لا اريد ان اسير فى جنازة ...

واذا هو يتغنى فى تضاحك وتهريج

وتابعنا الخطا ، نتملى صفحة النيل الوادع ، واستار الظلمة تهبط عليه فى ترفق ، وجوانبه خلاء لا يلوح فيها شراع ...

وآنسنا ضوءا هزيلا تتخايل من حوله ظلال واشباح ...

هذه قهوة « السويفى » تقوم على مشارف القرية ...

ودخلنا القهوة ، فاذا هى كما هى : حجرة حقيرة يتدلى من سقفها مصباح كدر يتلاعب به الهواء ، ومناضد ثلاث من خشب ناخر ، ومقاعد من قش متهالكة لا تحتمل دعابة جالس ، واركان موحشة لا يكاد يبلغها الضوء ، ورفوف عليها بعض العلب والأشياء ... لم تكن قهوة « السويفى » مستقلة لهذا الغرض ، وانما كانت قهوة وحانوت بدال فى آن ، ومن فوقها حجرة يقيم فيها « السويفى » وأسرته

وهل علينا صاحب القهوة ، رمادى اللحية ، عريض الوجه ، بارز الصدغين ، واخذ يمسح المنضدة بطرف جلبابه ، ثم جعل يتفرس فينا قائلا :

ـ يبدوانكم قطعتم مرحلة طويلة ، فانتم مجهودون ، عليكم عفرة ، خذوا راحتكم ، الحلبة حاضرة ... منذ زمن بعيد لم تشرف بكم القهوة ... الحمد لله على سلامتكم

ثم صاح :

ـ يا « فلافل » ... يا « فلافل » ...

فلباه صوت مكدود يقول :

ــ حاضر يا معلم ...

وبدأ « فلافل » فى سروال ممزق ، كاشف عن أوصـــال معروقة ، وصدار الح عليه النحول ، وتكاثرت فيه الفتوق وكان حافيا يحمل صندوقه الخاص بمسح الاحـــذية ، ويتابط اضمامة من الورق المقوى تحتوى على بعض الصحف والمجلات

كان « فلافل » يقوم فى القهوة ، بل فى القرية كلها ، بوظائف ثلاث : غلام القهوة ، وماسح الاحذية ، وبائع الصحف ... ولم يكن احد غيره يزاول شيئا من هذه الأعمال ، فاحتكرها لنفسه دون منافسة ونزاع

وصاح « السويفى » يقول لغلامه « فلافل » :

ــ هلم يا ولد الى أحذية السادة فانفضها ولمعها احسن تلميع

وسرعان ما أطاع الغلام ما أمر به ، فاقبل علينا يتخذ على فمه ابتسامة ذاوية ، ودفع بصندوقه العتيق تحت قدم « عبد الحكيم » ، واقتعد الارض يتناول بيديه الحذاء ينظفه ويطليه

وأدبر عنا « السويفى » يعد لنا شراب الحلبة ، وجعلت ارنو الى الغلام ، الى هذا الشبح فى ثوبه الهلاهل ، وهو يزاول تنظيف الحذاء فى حركات راتبة عليها ملالة وخمول .. ولمحت « نزهى » يخرج ورقة فيخط عليها رسم ماسح الحذاء فى وضعته تلك

والفيتنى ابادى الغلام بقولى :

ـ ما بال القهوة فارغة يا « فلافل » ؟

ـ الناس منكمشون يا سيدى ...

ـ كيف ؟

ـ منكمشون فى بيوتهم ... يخشون الخروج !

ـ ولكن البلدة لا يشملها قرار حظر السهر ...

ـ الخوف يسرى فى الناس ، سواء منهم من شملهم قرار الحظر ومن لم يشمل ، والنفوس فى حرج واغتمام

فهمهم « نزهى » وهو ماض فى اتمام رسمه التخطيطى لماسح الحذاء :

ـ انهم اشاعوا الرعب بين الناس ، فاصبح كل امرىء يخاف من خياله

فنابتنى سعلة ، واحسست راسى يطوف به دوار ، وجبينى ينضح العرق ، فاجتهدت ان أتغلب على ضعفى ، وقلت :

ـ يجب ان نعمل شيئا ... يجب ...

فرفع « فلافل » بصره الى قائلا :

ـ حقا ... يجب أن تعملوا شيئا ... نريد ان ناكل لقمة الخبز فى هناءة !

وقال « نزهى » وهو يستكمل الرسم :

ـ لقد بلغ بنا الضيق منتهاه ... لست ادرى لماذا لانعمل شيئا ؟

فقلت :

ـ علة البلية ما نحن فيه من فرقة وتفكك ... اتذكرون كيف كانت الأمة يدا واحدة وصوتا واحدا فى ثورتنا الوطنية سنة ١٩١٩ ؟

وقدم « السويفى » يحمل الصينية ، عليها اقداح اترعت بشراب الحلبة ، وكان قد تصيد اطراف الحديث ، فقال على الفور :

ـ ثورة سنة ١٩١٩ .. لله تلك الايام ... كنت يومئذ يافعا أخضر الشارب .. وما اكثر ما هتفت : يحيا الوطن !

وانتهى « فلافل » من تنظيف حذاء « عـبد الحكيم » و« نزهى » فتزحزح الى ينظف حذائى ، وكان « عبـد الحكيم » يلوذ بالصمت فى اثناء ذلك الحوار ، ولكنه كان صمت المستوفز ، واذا هو ينهض من مقعده بغتة ، ويضرب كتف « السويفى » صائحا :

ـ كم عدوا قتلت فى سنة ١٩١٩ ؟

فوجم الرجل ، وارتج عليه ، ثم انحى على شاربه يفتله ، وقال :

ـ ماأحسبنى قتلت منهم أحدا ...

فقال « عبد الحكيم » :

ـ اذن فانت لم تفعل شيئا ...

ـ كيف ذلك ؟ لقد كنت احمل الراية ، وأصرخ بأعلى صوتى ، والجموع من ورائى تردد الهتافات

ـ ماذا أفدنا من ترديد الهتافات وحمل الرايات ؟ لابد من عمل ايجابى . كنتم الآن تتحدثون فيما يجب أن نعمله

لخير الوطن . واجبنا شيء واحد ، أن نثور ، ان نحارب ، اسامعون ؟
وامسك « فلافل » عن الحذاء ، ومسح بظهر كفه لعابه المتسايل ، ورايته يقلب فى وجه « عبد الحكيم » نظرات حائرة
والتفت « عبد الحكيم » الى ورقة الرسم التخطيطى فى يد « نزهى » فتناولها وهو يقول له :
ـ ماذا اسميت هذا الرسم ؟
ـ سميته الهزيمة !
وطفق « عبد الحكيم » ينظر تارة الى الرسم ، وتارة الى « فلافل » ثم صاح :
ـ حقا هزيمة . . .
وانطلق يتضاحك فى سخرية
وعجل « نزهى » الى الورقة ، ينتزعها من يد « عبد الحكيم » وهو يقول :
ـ الم يعجبك الرسم ؟
ـ كيف ؟ انه هزيمة رائعة ، ولكنى اصارحك بانى لا احب هذا النوع من الرسوم . . . لسنا يا صدقى بحاجة الى من يرسم لنا الهزائم ، نحن احوج ما نكون الى من يرسم لنا الانتصارات !
فقال « نزهى » :
ـ الانتصارات ؟ واين هى ؟ انى ارسم ما ارى . . . ارسم الواقع . . .

وأشار الى « فلافل » وهو يتم قوله :
ــ هذا المنكود الذى نراه بأعيننا انما يمثلنا جميعا فى تلك الفترة العابسة المشئومة من حياة الوطن
فصاح « عبد الحكيم » :
ــ انه يمثلكم انتم . . . اما انا فلا . . . انه لا يمثلنى ابدا . . . انصح لك يا « نزهى » ان تتجه بفنك وجهة اخرى ، وجهة استنهاض واستبشار واعتزام
ثم راح يرمى ببصره من حوله ، وهو يقول :
ــ لا ادرى لماذا توخينا هذا المكان المهجور ؟ بودى ان نتحدى قانون الحظر ، وان نبرز الى الطريق غير مبالين !
فهمهم « السويفى » :
ــ ان الخارجين على هذا القانون مهددون باطلاق الرصاص عليهم فى غير رحمة
فقال « عبد الحكيم » :
ــ وماذا فى هذا ؟ ماذا فى ان نفقد واحدا او اثنين او ثلاثة ؟
فقال « نزهى » :
ــ واى نفع للوطن فى ان نبذل انفسنا على هذا النحو ؟
فأجاب « عبد الحكيم » :
ــ ليعرف المواطنون أن هنالك احتجاجا عمليا على هذه القوانين الغاشمة
واندفع الى الطريق وهو يقول :
ــ لا اريد أن ابقى حبيس هذا الوكر .. اريد ان اشم الهواء الطلق

ولزمت مجلسي مهتاج النفس ، والفيت « نزهى » يجرى
قلمه على المنضدة ، يخط عليها خطوطا معتسفة ، وهو
يضرب الارض بقدميه ضربات غير متسقة ، اما « فلافل »
فقد لبث متجمعا بجوار صندوقه واضمامة صحفه ومجلاته
وهو يسارقنا النظر ، وسمعت « السويفى » يهمس :
ـ اقول لكما الحق .. انى اخشى على صاحبكما « عبد
الحكيم » ان يصيبه اذى ... هذا وقت لا أمان فيه
فقلت لاهف الأنفاس :
ـ ليكن مايكون ... فليس هناك وضع اسوأ مما نحن
فيه .. ماذا فى ان يقبضوا علينا ويقذفوا بنا فى المعتقل ؟
فقال « السويفى » :
ـ اتعرف المعتقل يا سيد « سمرى » ؟
ـ كيف لا اعرفه ؟ لقد اعتقل ابى ، بل نفى ، بل جرح
فى سبيل المطالبة بحق الوطن
فرفع « السويفى » راسه يقول :
ـ لكى تعرف الاعتقال والنفى لابد ان تذوقهما بنفسك
.. اما انا فقد اعتقلت وحبست وذقت ماذاقه ابوك ،
وماذا افدنا ؟ ذلك هو البلد ، ما زالت احواله مختلة ،
واوضاعه سيئة ، والكبراء ياكل بعضهم بعضا ... لمن
تبذلون انفسكم ؟ اخبرونى لمن ؟
فقال « نزهى » :
ـ لنقلب البلد راسا على عقب ... علينا وعلى اعدائنا
فقال « السويفى » وهو يمسح شاربه :

ــ اف هذا الاجراء شيء من العقل ؟

فقلت فى اهتياج :

ــ اتريدنا على ان نسكت لا نصنع شيئا ؟!

فانهال « السويفى » على شاربه يجتذب شعراته ، و
يرمق الأفق الحالك من خلال النافذة ، وقال :

ــ وماذا نملك الا السكوت ؟ فلنصبر حتى يفرج ا
الكرب ، ويحل العقدة

وبدا « عبد الحكيم » بباب القهوة ، وقد سمع جم
« السويفى » فقال :

ــ الله يأمرك ان تحل عقدتك بنفسك .. لا تتشدق باس
الله فى غير معنى

فقال « السويفى » :

ــ ما هذا يا سيد « عبد الحكيم » ... نحن نقول انك
رجل عاقل ، وانك مؤمن بالله ... نحن لا نملك لأنفسنا
ضرا ولا نفعا .. الله يفعل مايريد

فقال « عبد الحكيم » :

ــ ليس فى قولى ما يخالف العقل ، ويجانب الايمان بالله

فتدانى منه « السويفى » ، ومازالت اناملة تعبث
بشاربه :

ــ وماذا نحن صانعون اذن ؟

فقال « عبد الحكيم » جهرة :

ــ لابد ان يكون لكل امرىء منا هدف يقصد به مصلحة

لوطن ، وخطة مرسومة لبلوغ ذلك الهدف . احب أن أسالك
ا سيد « سويفى » ... ماذا تطلب ان تحققه لكى تنفع
ه وطنك ؟

نفغر الرجل فاه ، وظل صامتا يفكر هنيهة ، ثم قال :

ـ كل امرىء منا يبتغى تحقيق مطالب كثيرة ...

فقال « عبد الحكيم » :

ـ اقصد مطالبك النافعة لوطنك ، والتى يعود نفعها عليك انت ايضا ...

ومكث « السويفى » ساهما يحلق بفكره ... لا يجيب فأدلى « عبد الحكيم » بنظره الى « فلافل » يقول له :

ـ وانت يا « فلافل » .. ماذا تنشد ان تحقق فى دنياك من الأمور النافعة ؟

فشاعت ابتسامة على الوجه المهزول ، ثم طاطا راسه فى استحياء ، فقال « عبد الحكيم » :

ـ لا تخجل ... كن صريحا ... ماذا تريد أن تحققه فى الدنيا ، لكى تنفع به بلدك ... انظر الى .. وتكلم ...

فرفع « فلافل » راسه يواجه « عبد الحكيم » ويقول :

ـ اريد ان اكون سكرتيرا لنقابة الصحفيين !

فارتجت ارجاء القهوة بقعقعة من التضاحك ، واغرق « السويفى » فى قهقهته ، وهو يمسح عينيه ويقول :

ـ سكرتير نقابة الصحفيين دفعة واحدة يا « فلافل » ... فلتقنع بان تكون : سكرتير ماسحى الأحذية أولا ..

واخذ الغلام بما سمع ، فظللت محياه سحابة كدراء وزاغ عنا ببصره . . . فقال « نزهى » وهو يكتم ما بقى من تضاحكه :

ـ ولماذا لا يجمع بين المنصبين ؟

ورأينا « عبد الحكيم » ينحاز الى الغلام المتكمش المخذول قائلا له :

ـ تستطيع يا « فلافل » أن تكون سكرتيرا لنقابة باعة الصحف . . . ولكن بشرط

فاشرأب « فلافل » يستوضح ، فاتم « عبد الحكيم قوله :

ـ بشرط ان تتدرب على القتال . . .

فاقحمت نفسى اسأل :

ـ القتال ؟ ما العلاقة بين القتال وسكرتير نقابة باعة الصحف ؟

فأجاب « عبد الحكيم » مرفوع الهامة ، رزين النبرات :

ـ لا تستطيع أن تعمل شيئا فى الحياة الا اذا انميت بين جنبيك خصائص الجندية . . . تعلم ان تقاتل وان تصرع العدو ، فان فعلت وجدت الحياة أمامك معبدة الطريق

فقال « نزهى » :

ـ وانت يا « عبد الحكيم » . . . الا تفصح لنا عن هدفك الأكبر فى الحياة ؟ ماذا تطمع ان تحققه ؟

فاسرع « عبد الحكيم » يقول :

ـ عجبا لك ... اما فطنت الى هدف فى الحياة ؟
فوجدتنى اقول فى فضول :
ـ ناشدتك الله ان تخبرنا ...
فصاح :
ـ هدف .. هدف .. ان انشىء معسكر تدريب ، وان
وا جميعا تحت امرتى جنودا فيه ، اعلمكم كيف يكون
ال ؟ وكيف تصبحون ابطالا تملأ قلوبكم العزة والكرامة
مر جنوبكم الشجاعة والاقدام
واحدقت نظراته بنا ، ثم استأنف قوله :
ـ ذلكم هدفى .. وقد صارحكم « فلافل » بهدفه ...
برونى انتم ما اهدافكم
فتبادلنا النظر ، انا و« نزهى » و « السويفى » ، ولكننا
لفظ من قول
فصاح « عبد الحكيم » :
ـ انى اجيب نائبا عنكم ، اهدافكم انّ تعملوا تحت امرتى
ن تذعنوا لما اوجهكم اليه ...

ـ ٤ ـ

العاشر من فبراير سنة ١٩٥٢
ى انتكست صحتى أسوا انتكاس ، وكانت النكسة من
اء ذهابى الى قرية « الهماميل » سعيا على القدم
ضائى الليل باسره فى قهوة « السويفى » هنالك ، فقد
ت الى الدار صبحا لا اكاد امسك الرمق ، وكنت اقطع

طريقى متهالكا متداعيا اجاهد واجالد ، واشعر بانى اوشك
ان اسقط ، ولم يشدد من عزمتى الاخشيتى أن يتحقق
ماتوقعه لى « عبد الحكيم » ، ونحن الى القرية ماضون .
اذ قال لى انه لا يريد ان يعود بى الى « القاهرة » محمولا
على عاتقه !

واضطررت ان امكث حليف الفراش بضعة ايام ، مطيعا
ما امرتنى به امى من الاعتكاف ، وقد بذلت هى غاية الوسع
فى تمريضى وعلاجى ، حتى ابللت بعض ابلال .

وقد عادنى رفيقى « نزهى » واعلمنى بانه امضى هو
و « عبد الحكيم » ليلة فى قهوة « السويفى » ، وقد لاحظ
هو على « عبد الحكيم » امعانه فى التجهم ، واغراقه فى
الصمت والتأمل .. وايقن من ذلك انه يسر فى نفسه
امرا يزمع القيام به ، ولكنه يعدنا صغارا لا يجدر بنا ان
نطلع على اسراره الجسام

وقلص « نزهى » شفتيه ، وقال :

ــ لا يروقنى ان ينطوى « عبد الحكيم » هذا الانطواء ،
وان يكتم عنا خبيئة نفسه .. الا يثق بنا ؟

فقلت :

ــ ربما كان يرى ان ليس احد منا نظيرا له ، يوليه ثقته .
ماذا نهضنا به من اعمال تدل على الجراة وصدق الجهاد ؟
اما هو ..

ــ نعلم يا سيدى انه كان بين من تطوعوا فى حرب
« فلسطين » ، وانه ابلى مع الفدائيين فى معركة القناة ..

ولكن اصدقني بربك : ماذا غنمنا ؟ نكبنا فى « فلسطين » شر نكبة ، وذهب دم الفدائيين فى معركة القناة هدرا كأنه بعض ماء القناة ..

ـ ليست التبعة عليه فى هذه او تلك .. حسبه انه ادى واجبه

ـ ما جدوى الجهاد وبذل النفس يا سيد « سمرى » والأيدى التى تدبر واهنة ، والعقول التى توجه غير موفورة ؟ الم تسمع ما كان من امر الجهاد فى القناة ؟ لقد استفحل الاضطراب ، وتفشت الدسائس ، واختلط الفدائيون بالمأجورين والمستغلين ، حتى كاد المجاهدون انفسهم لا يأمن بعضهم شر بعض

وعمد راسه بقبضة يده ، وبدا كاسف الوجه يجمجم :

ـ حال لا تسر ..

ـ والأهداف التى تحدث معنا فى شأنها « عبد الحكيم » لقد طالبنا بأن يكون لكل منا هدف يعنيه ..

فاجاب وقد اخفى وجهه بين يديه :

ـ فلندعه اولا يحقق هدفه ، ولننظر ماذا هو صـــانع ؟ وانصرف « نزهى » عنى بعد قليل ، وقد وعدنى أن يزورنى فى القريب

الحق انى لم يرقنى ما تحـــدث به « نزهى » الى ، واحسست غمامة من الياس تنعقد حولى ، وحاولت ان انفى هذا الياس عن نفسى ، وجعلت افكر فى الهدف الذى يتعين ان يكون لكل امرىء فى هذا الوطن ، وطال بى التفكير ، فيما

يجب ان يكون لى من هدف ، ولكنى لم اهتد الى قرار .
واعجباه !.. اليس ثمة هدف اسعى الى بلوغه ، تلبي
لنداء الوطن ، وقياما بالواجب له ؟ يا للعار !.. ايجـ
« فلافل » ماسح الاحذية لنفسه هدفا معينا يعبر عنه
وانا « يسرى السمرى » ابن « مجاهد السمرى » ذل
الوطنى الطيب الذكر ، لا اطمئن الى هدف منشـود
وملكتنى سعلة أجهدتنى الاجهاد كله ، وطاف بى الدو
فارحت على الوسادة راسى ، وانا اهمهم :
ـ انه الضعف .. انه المرض .. مأساة حياتى !

ـ ٥ ـ

الخامس والعشرون من فبراير سنة ١٩٥٢
ترخصت السلطات فيما كان مفروضا من حظر السهر
واصبح التجوال فى الليل غير محوط بتلك القيود العاتية
ولكن ما جدواى من ذلك الترخص والتخفيف ؟ انى موثو
الى الفراش ، وقد اقسمت لامى ان اطيعها فيما تامرن
به ، وتلزمنى اياه حتى ينزاح عنى ما الاقى من اوصـاب
ابطا عنى « نزهى » لا يعودنى ، وكذلك « عبد الحكيم
ومن ثم لا اعلم من كوائن الدنيا المحدقة بى الا ما ترص
الصحف ، وما يلفظه المذياع ، وما اتفه الاخبار الصحفي
والاذاعية فيما ارى .. وانى عن تفاهتها فى غنية وشغل
كانت مسلاتى فى معتكفى ان اخلو الى كنزى الثمين من
اضاميم الصحف والصور ، تلك التى تجلو لى مراحل
جهاد ابى ، وترينى اعماله المجيدة فى خدمة الوطن ، فاعب

من قراءة خطبه ومقالاته واخباره لا يسكن لى ظما ، واتملى صوره فى شتى مواقفه لا امل ترداد النظر

لماذا لا اتخذ ابى مثلا لى اقفوه واحتذيه ، اغامر فى معترك السياسة ، او اعمل فى ميدان الاصلاح ؟ لماذا لا انظم جماعة ؟ لماذا لا أؤلف حزبا ؟ لماذا لا اكون زعيما ؟

ووجدتنى من فرط السرور اصيح :

ـ حقا .. فلأكن زعيما على راس حزب يجاهد لاستخلاص البلاد مما يرين عليها من شقوة وبأساء

وبينما انا فى حمية هذه المناجاة ، اذ اقبل على « نزهى » ووجهه اقتم عابس ، فبادرته مهتاجا اقول :

ـ لقد عينت لنفسى هدفا لا اعدوه .. لقد قررت مصيرى فى الحياة .. ساهيب بالجماهير ان يتبعونى ، وان يتخذونى زعيما امضى بهم فى سبيل اعزاز الوطن .. وددت ان افضى بهذا القرار الحاسم الى « عبد الحكيم »

فقال لى وهو على حاله مكفهر القسمات :

ـ اتدرى اين مكان « عبد الحكيم » ؟

ـ لا ادرى ..

ـ فى المعتقل .. لقد اخذوه بتهمة خطيرة

فعاجلنى احساس غريب ، هو مزاج من رهبة وحنق ، وجعلت ارنو الى « نزهى » لحظة ، ثم قلت مختلج الصوت :

ـ ما تهمته ؟

ـ ضبطوا لديه اوراقا واسانيد تكشف خطته لانشاء معسكر سرى للتدريب

وبعد صمت قصير ، واصل « نزهى » حديثه يقول :

ـ هذا هدفه .. وذلك مصيره !

ونظر الى فى جد ، وقال فى اتزان :

ـ انصح لك يا «سمرى» ان تخفض من غلوائك فى تفكيرك ، وان تستأنى فيما تعتزم من انشاء حزبك !

- ٦ -

اول مارس سنة ١٩٥٢

الغيت الأوامر الموقوتة التى كانت تحظر السهر ، وعادت الحياة كما كانت .. وعلى الرغم مما كنا نرى من هدوء ظاهر ، فان السخط عام ، ووميض النار يبدو من خلل الرماد ، الناس يغشاهم خمول ، والجو من حولهم طامس ، لكأن فيه سحبا ثقالا تسبح فوق الرءوس ، ولكنها سحب لا تنفض ما تختزن من ماء ، ولو اتيح لهذا الماء ان ينهمر ، لانقشعت على اثره الغيوم الثقال ، واسفرت عن صحو واشراق

بارحت فراشى ، وانا اشعر ببعض التماثل ، ولكنى فى الحق اغالب واجالد ، فما عاودتنى العافية موفورة ، وانى لا اكاد انطلق شيئا حتى اجدنى مضطرا ان اخلد الى فراشى يوما او بعض يوم

لم تعد لى طاقة بالتزام اوامر الطبيب ، ولذلك ثارت امى على ، ونشبت بيننا الخصومة ، فكنت تارة اهادن وتارة اتحدى

ولقد استؤنفت الدراسة فى كليات « الجامعة » ، فلم اكن اذهب الى كليتى الا لماما .. ليس لى على الدراسة جلد ، ولا انا بها مشغوف ، اعترف بذلك جهرة ، بل اقول انى ابلغ فى ذلك حد الكره .. بنفسى ملالة من كل شىء

غابت عنى انباء « عبد الحكيم » ، اما « نزهى » فكان يزورنى فى الحين بعد الحين ، فنمضى الى الطريق نتسكع ونتناقل لغو الحديث ، وربما عدلنا الى بعض المشارب نستريح ، فنقضى ساعة نتثاءب ، واذا عز التثاؤب على « نزهى » اخرج كراسته وقلمه وطفق يرسم ، ثم لا يعتم ان يمزق ما خطت يداه !

وساقنى « نزهى » مرات الى مقاصف الليل ومساهره ، يبغى بذلك ان يتصيد المواقف المثيرة ، والشخصيات الطريفة ، ليجعل منها مادة لفنه ، واذا هى على قلمه رسوم

ويوما قلت له :

ـ لماذا لم تلق بالا الى ما نصحك به « عبد الحكيم » حين اوصاك بأن تتخير لرسومك مشاهد جد ، وان يكون لك من ورائها هدف رفيع ؟

فأجابنى ، متلاعبا بقلمه :

ـ لقد حاولت ، فلما عرضت نماذجى فى هذا السبيل على الصحف التى اعمل بها لم تقع موقع القبول ، ان القائمين على هذه الصحف يؤثرون المغريات ، ويتقاضوننى ان اقدم لهم ما يصلح للتسلية والتفكيه والابهاج .. طوعا لأهواء القراء !

وسرح ببصره لحظة ، ثم مال على اذنى يهمس :

ـ لقد اتممت رسما عظيما ازمع تقديمه فى احد المعارض، فان عز على ان اعرضه فى « مصر » فساعمل على عرضه فى « أوروبا » ..

ـ فى « اوروبا » ؟..

ـ ولم لا ؟ لو كان « عبد الحكيم » غير معتقل ، ورأى هذا الرسم ، لرقص طربا ..

وشرع يقلب صحائف كراسته ، ثم اشار الى رسم فيها وهو يقول :

ـ ذلك نموذج مصغر للوح الفنى الذى اعددته .. انه تخطيط ينقل اليك الفكرة .. انك لا تشهد اول وهلة الا رسم مدفع كبير مصوب الى قلعة عابسة متجهمة . .ولكن دقق النظر فى رسم المدفع .. الا تستبين شيئا ؟!

وتفرست فى الرسم ، فاذا انا ارى اجزاء المدفع تكشف عن صور جنود من شباب الوطن يتجلى فيهم حماس

ومكثت مليا ارنو الى الرسم ، وانا معجب بما يرمز اليه . ثم امسكت بيد « نزهى » اهزها قائلا له :

ـ مرحى .. مرحى .. انه رسم فريد .. اهنئك !

ـ ٧ ـ

اول ابريل سنة ١٩٥٢

طاب لى مع صاحبى « نزهى » هذا اللون من الحياة حياة التبطل والسهر . ارجع الى البيت فى اعقاب الليل ،

فتتلقانى امى باللوم والتعنيف ، ولكنى كنت لا اعبأ بقولها ولا اصيخ ، فاذا لجت فى ملامها اغلظت لها فى الرد ، واسكتها بكل سبيل ..

ولم نكن نكتفى ـ انا و « نزهى » ـ بالمقاصف والمساهر ، ندلج اليها اكثر الليل ، بل اخذنا نرتاد الحدائق العامة فى الضحوات والأصائل ، يلذ لنا ان نتعقب الفتيات فى مغدى ومراح ، فنغازل منهن من نانس فيهن الملاينة ، ونجد فى ذلك متعة وسلوى

واهتدينا الى فتيات ثلاث ، لكل منهن ميزة ، الأولى بادنةمكتنزة ،والثانيةشقراء واضحةالشقرة ،والثالثةالأخرى سمراء شديدة السمرة ، وقد اصطفين دكة خاصة فىحديقة النهر ، على طرف الجزيرة ، فهن يجلسن عليها ساعة فى عصر كل يوم ، لا يتخلفن ، ولا يتفرقن ..

واخذنا انفسنا بأن نجوز بهن مرة بعدمرة ، وان نخالسهن نظرة بعد نظرة ، ثم مددنا شباك الحديث اليهن ، فأصممن اسماعهن ، ولم تلح لنا منهن بارقة ارتياح

وعلى مر الأيام تم بيننا وبين الصواحب الثلاث تعارف ، ولكنه تعارف صامت عقيم ، فاذا نحن بدونا حيالهن لم يستطعن مغالبة الابتسام ، ومال بعضهن على بعض يتهامسن فى رفق ، ثم اصطنعن الجد ، واستانفن ما كان يدور بينهن من حوار .

ومرة اخذنا مجالسنا فى ظل شجرة ضخمة تقوم عن كثب من الدكة المعهودة ، وبقينا نرقب هؤلاء الأوانس ،

واخرج « نزهى » كراسته ، وشرع يجرى قلمه على الورق ونظراته تشخص الى ثلاثتهن آنا بعد آن .. وشعرن بان صاحبى لا بد يرسم صورهن ، فوضحت عليهن مخايل الاهتياج

ولما اكمل « نزهى » رسمه اراني اياه ، وهو يتضاحك ويقول :

ـ ما قولك فيما ترى ؟

فما وقع بصرى على الرسم حتى صحت مشدوها :

ـ رائع .. ولكن ..

فتعجلنى يقول فى صوت عال :

ـ ماذا ؟

فاستدركت اقول :

ـ لا شىء !

لقد كان الرسم يمثل سرب الفتيات فى غلائل شفافة ، فهن يتجلين كانهن عاريات .. ولبثنا نتناقل الرسم ، ونتبادل الضحك ، وبدت على الفتيات ملامح الاستطلاع والقلق ، وشاهدنا الفتاة البادنة تخطو نحونا ، فعرانا صمت، وما ان دانتنا حتى مدت يدها الى « نزهى » تقول :

ـ هل تاذن لى فى ان ارى الرسم ؟

فاستجاب لها الصديق ، ودفع اليها بالورقة ، وعلى شفتيه بسمة ، فما القت على الرسم نظرة حتى انطلق لسانها بالشتم والسباب ، وهرعت اليها صاحبتاهاتشتركان معها فى التصايح والاستنكار .. ثم امسكن قليلا تتجمع

انظارهن على الرسم يتوسمنه ، وبغتة علت ضحكاتهن مصلصلة ، وهن يشرن بالانامل الى الورقة فى اهتياج . وما هى الا ان تزاحمن وتدافعن ، تبغى كل منهن ان تكون فى حوزتها الورقة ، فاقبل عليهن « نزهى » يفض بينهن هذا النزاع وهو يقول :

ـ على رسلكن .. سارسم كلا منكن على حدة !

وارتفعت اصواتهن دفعة يقلن :

ـ حقا ؟!

ولكنهن استدركن ، واشحن عن الورقة بوجوههن ، وكانت اجراهن الفتاة البادنة ، اذ استبقت الرسم فى يدها ، وواجهت « نزهى » تقول له :

ـ الا تعترف بانك قليل الحياء ؟

ـ اعترف .. انعتينى بكل ما تهوين من نعوت ، ولكنى مستطيع ان اثبت لك دائما حسن نيتى ..

وتدخلت اقول :

ـ اقدم لكن صديقى « نزهى » الفنان المشهور .. صاحب الرسوم الساخرة التى تزين الصحف والمجلات

فقالت البدينة ويدها فى خصرها :

ـ لم نحظ باى شرف يا سيدى !

فسارعت الشقراء والسمراء تتضاحكان

وقال « نزهى » :

ـ مادمت يا سيدتى لم تحظى باى شرف ، فهاتى الرسم

فاجابته كاسرة العين :

ـ ان هذا الرسم اصبح من حقنا نحن ، وخاصة لانك اظهرتنا فى هذا الوضع الشائن ..

فوجدتنى اقول :

ـ اقترح تمزيق الورقة ، انهاء للاشكال ..

فقالت البدينة :

ـ حقا يجب ان تمزق الورقة ، وساتولى انا تمزيقها بنفسى !

وامسكت بالرسم ، كانها تهم ان تفعل ، والفيت السمراء والشقراء تنظران اليها فى انزعاج ، واذا انا ارى الآنسة البادنة تطوى الورقة فى ترتيب ، وتودعها حقيبة يدها فى عناية ..

فصحت :

ـ حسنا فعلت

واضفت قائلا :

ـ هل تسمحن يا آنساتى ان اقدم لكن شيئا من المرطبات للترفيه !

فتبعنى « نزهى » يقول على الأثر وهو يهز كتفى :

ـ وكيف لا يسمحن ؟ هيا يا « سمرى » .. مكان البائع قريب

والتفت الى الفتيات يقول :

ـ اقدم لكن صديقى « يسرى السمرى » فتى ظريف ، حاز البطولة فى الامتناع عن الدراسة بكلية الحقوق ، ولكنه فنان يجيد تقديم المرطبات ، وله فى اختيارها ذوق رفيع

ولم يطل غيابى . فعدت محملا بزجاجات الأشربة الفوارة مختلفة الألوان ، ووجدت « نزهى » مشتبكا مع الاوانس فى الحديث ، وقد ارتفعت بينه وبينهن الكلفة ، كأنه يعرفهن من قديم

وصففت الزجاجات على الدكة ، ووجهت حديثى الى الثلاث الآنسات أقول :

ـ اليس من حقى ان اشرف بالأسماء الكريمة ؟

وماكدت أفرغ من جملتى ، حتى سبق « نزهى » يقول :

ـ فاتنى ان أقوم بتعريف صديقاتى لك يا « سمرى »

واشار الى البدينة يقول :

ـ الآنسة « ولعة »

ثم اشار الى الشقراء ، وقال :

ـ وهذه « فلة »

واردف قوله مشيرا الى السمراء :

ـ وتلك « سمسمة »

ورايتنى تنعقد عينى بالآنسة الشقراء « فلة » اتملى صفاء محياها الوديع ، فانبهنى « نزهى » الى توزيع الزجاجات على الجمع ، فبدات بالشقراء ، وعنيت بأن انزع لها سداد الزجاجة ، وان امسح مكان السداد بمنديلى الخاص ، فاولتنى ابتسامة متلطفة ، واسبلت جفنيها تقول :

ـ شكرا لك . . .

فغمرتنى البهجة ، وانا اعقب بقولى :

ـ بل الشكر لك على القبول

ثم مددت يدى الى الآنسة البادنة « ولعة » باحدى

الزجاجات ، وفاتنى أن أنزع سدادها ، فاستدركت افعل ، فاسرع « نزهى » يأخذ منى الفتاحة ، ويتولى ذلك عنى ، ورأيته يخرج منديله ، ويمسح مكان السداد من الزجاجة ، كما صنعت ، فأشرق له وجه صاحبته ، وقالت وهى تخفض بصرها :

ــ أتعبت نفسك .. شكرا لك !

والفيتنى أجاذب « فلة » الحديث ، أتصيده من هنا وهنالك : الحديقة هادئة ... الجو لطيف ... السماء رائقة !

وامتدت يد سمراء بالغة الدكنة الى الزجاجات المصفوفة تجتذب منها واحدة ، واذا هى يد « سمسمة » ، فقلت أتصنع الدهشة :

ــ لاتؤاخذينى يا آنستى ... سهوت عنك

ورجوت منها أن تناولنى الزجاجة ، لأنتزع منها السداد ، فقالت فى حدة تحاول اخفاءها :

ــ لا ... أنا شاكرة !

فبسطت لها يدى بالفتاحة ، فقالت فى اهمال :

ــ لا حاجة لى بها ...

وسرعان ما أسندت الفتاة طرف السداد الى حرف الدكة وضربت بيدها على السداد فاطاحت به ، وجعلت تصب الشراب فى حلقها صبا ، وما لبثت أن قذفت بالزجاجة وهى تتضاحك فى اهتياج . فصاح « نزهى » :

ــ مرحى ... مرحى ... لم أكن أدرى أن الآنسة « سمسمة » احدى بطلات السرعة فى شرب القازوزة ،

سيكون لك شأن بلا ريب فى المباريات العالمية القادمة ...
امعتزمة انت الاشتراك فيها ؟
فقهقهت تجيب :
– ولم لا ؟ ومن يشترك فيها اذا انا لم اشترك ؟!
فقالت الفتاة البادنة « ولعة » :
– انها تقوم بالتمرينات منذ الآن !
والفينا « سمسمة » تعجل الى زجاجة اخرى ، فتحذو
بها ذلك الحذو ، تنزع بيدها السداد ، وتعب الشراب دفعة
وتلقى بالزجاجة فى عنف ، فتصايحنا متهللين ، وملت عليها
ارفع ذراعها واقول :
– كسبت الجولة الاولى فى مباراة اليوم
ونحا « نزهى » نحوها بقطعة من ورق كورها على شكل
كاس ، وانحنى امامها يقدمها لها ويقول :
– يسرنى ان اقدم لك الكاس الفضية ، اعترافا بفوزك !
فاشتركنا جميعا فى تصفيق حاد
وانبسطت اسارير « سمسمة » ، وزال عنها ماكان
يعروها من ضيق ، وما هى الا ان اقبلت علينا بوجهها تسرد
قصص بطولتها فى احتساء الاشربة ، وذكرت انها تناولت
فى جلسة واحدة عشرا من فنجانات القهوة ، وعشرة من
اكواب الليمون ، ومثلها من اقداح السحلب الساخن
وتركت « سمسمة » تقص مغامراتها فى هذا المضمار
وانصرفت الى الشقراء « فلة » اجاذبها اطراف الحديث ،
ولكنى لم استطع ان اجاوز بها حديث الحديقة الهادئة ، والجو
اللطيف ، والسماء الصاحية . واخيرا وجدتنى اقول :

ـ لست أدرى لماذا احس اليوم بان الحديقة كلها يضو
منها عطر « الفل » ذلك العطر المنعش اللطيف !
فتضاحكت « فلة » تسأل :
ـ ومن أين جاءها عطر الفل ياترى ؟
ـ حقا ... من أين ؟
وابتسمت وانا اداعب اناملها ، ثم اتممت قولى :
ـ فلنبحث انا وانت عن ذلك السر ...
وبينما نحن نتلقط مناسبات الاحاديث البهيجة ،روعت
فرقعة على مقربة ، فالتفتنا نتبين ، فوجدنا « سمسمة
قد اطاحت برقبتى زجاجتين من زجاجات الأشربة الفوا
وصاحت :
ـ فى حب السادة العشاق !
وراحت تشتف الزجاجتين واحدة تلو الاخرى ، ورمـ
بهما بعيدا كشأنها من قبل ، ولاحظت ساعتئذ ان « نزهى
قد انتحى بصاحبته « ولعة » غير بعيد ، كما انتحيت ا
بصاحبتى « فلة » ، وصفقنا جميعا نحيى صنيع «سمسمة
ولكنها لم تأنس بتصفيقنا ، بل قالت فى احتداد :
ـ ماذا انتم منتظرون ؟ الا تخشون ان يلمحكم حارس
الحديقة وقد جاوزتم الحد ؟ اتريدون ان نخرج مطرودين
كفى يا جماعة .. العقل زينة !
وتواعدنا على لقاء قريب

ـ ٨ ـ

آخر ابريل سنة ١٩٥٢
ترادفت ملاقاتنا للثلاث الاوانس فى ايام معلومة من كل

اسبوع ، والفت صحبة « فلة » ، فبادلتنى الفة بالفة ، حتى استأثرت بها واستأثرت بى ، وكذلك كان شأن « نزهى » و « ولعة » مؤتلفين يستأثر كل منهما بصاحبه

اما « سمسمة » فقد انتهى بها السخط الكظيم والاهتياج البادى الى لون من الاستسلام والرضا بما هو مقسوم ... كانت تختلف الى الحديقة مع « فلة » و « ولعة » فى كل لقية ، وترافقنا الى كل جهة ، فتقاسمنا مانحن فيه من امتاع ، وقد اطمانتا الى مكانها منا على هذا النحو ، وانسنا بما تشيعه بيننا من روح البهجة ، ووجدنا بهاوسيلة الى الانطلاق حينا بعد حين من حرج الجلسات الثنائية الخاصة ، والاندماج فى جلسات عامة مشتركة ، ننفى بها ماعسى ان يكون من سآمة وملال

على ان جلساتنا العامة لم تكن تخلو من بعض تصرفات جريئة ، بينى وبين « فلة » ، اوبين « نزهى » و « ولعة » فكانت « سمسمة » تغض الطرف عنها تارة ، وتتصدى لنا تنهانا ان نتمادى فيها تارة اخرى

والفيتنى اتجاسر على مداعبة « فلة » واتعمق ، فتعلمت هى منى ان تكون جريئة معى ، واستطعت ان اخرجها مما كانت عليه من زماتة وتحفظ ، ووجدتنى اطرب لذلك طربا لم يكن لى بمثله عهد ، ولكن هذا الطرب والارتياح كان ينقلب عندى احيانا الى سهوم وانقباض ، حين اراجع نفسى ، الومها على ماكان منى !

وعلى مر الايام تيسر لنا ان نفرى الفتيات الثلاث بأن

يطلن معنا الجلوس والتنقل ، وان يمتد لقاؤنا لهن هزيعا من الليل ، وكنا نعينهن على صوغ الاكاذيب ، يسوغن بها ذلك السهر لاهلهن ، فيتزودن بها حين يرجعن الى بيوتهن مبطئات

وذات ليلة ، ودعنا الفتيات الثلاث على وعد باللقاء فى يوم آت ، ومضيت انا و « نزهى » نواصل سهرتنا متسكعين فى الطرقات والمسالك ، والقيت نظرة على ساعة يدى ، فدهشت وقلت لصاحبى :

ـ اتدرى كم الساعة الآن ؟

ـ كم ؟

ـ الثانية عشرة

ـ ماذا تعنى ؟

ـ هذا منتصف الليل !

ـ وماذا فى هذا ؟ .. بقى النصف الآخر ؟!

ـ لقد احتجزنا الفتيات الى هذا الوقت المتاخر ، كيف يكون موقف اسرهن منهن ؟

ـ فليكن ما يكون !

ـ ايليق بنا ان نحرج هؤلاء الفتيات ، وان نزج بهن فى المآزق ؟

ـ لقد رضين بصحبتنا ، فليتحايلن على ذويهن ما استطعن اننا لم نرغمهن على ان يسايرننا .. دعك يا صديقى من هذه الوساوس !

فصمت هنيهة ، وانا اخفض راسى ، انظر الى موطىء قدمى ، ثم شخصت الى « نزهى » اقول له :

ـ يبدو اننا تغالينا فى صحبة هؤلاء الفتيات ، وأشعر بان علينا التبعة فى اغرائهن بان يسلكن طريقا غير سوى ..

فتضاحك صاحبى يقول :

ـ طريق غير سوى ؟ .. انك تهذى .. هل جرى منا ما يسىء اليهن ، او يشين سمعتهن ؟

ـ لقد تعلمن منا ان يكرعن اقداح الجعة ..

ـ انهاشراب مفيد .. ولا يستنكر من الفتيات ان يتعاطينها فى غير سرف ...

وهنا أخرج من جيبه زجاجة ، ولوح بها متضـــاحكا يقول :

ـ اما هذا « البراندى » فحرام على الفتيات !

ونقر الزجاجة بأصابعه ، وهو يردف :

ـ فى صحتك !

وجرع جرعة وافية ، ثم قال وهو يمد الزجاجة الى :

ـ هل لك فى رشفة ؟

فنحيت يده عنى ، وانا اقول :

ـ الطبيب يحظر على ان أشرب « البراندى » ...

ـ حسنا ... يجب ان تذعن لرأى طبيبك !

وخطونا بضع خطوات ، واذا انا اقول لصاحبى :

ـ اسمع يا « نزهى » ... اخشى ان يقع للفتيات منا ما نكره ...

ـ ما زلت تتحدث فى شأنهن ؟ !

ـ نعم .. .أعترف لك بأن موقفى لم يكن رزينا مع « فلة » بعد أن تساقينا اقداح الجعة ..

- حين اختليت بها فترة قصيرة ؟

- نعم ...

- ماذا صنعت يا بطل ؟

- تبادلنا القبلات فى نشوة ، وتعانقنا فى حمية ..

فصلصلت ضحكة « نزهى » وهو يقول :

- الليلة اول مرة ... لقد سبقتك الى ذلك مع « ولعة » منذ أسابيع !

- وماذا بعد التقبيل والعناق ؟ يجب وضع حد لهذا العبث ، ان « فلة » و « ولعة » تعدان نفسيهما مخطوبتين لى ولك ...

- لكل منهما أن تعد نفسها كما تشاء ، ولكننا لا نعد نفسينا مخطوبين لهما ..

- الا يكون هذا تصرفا غير كريم .. غير نبيل ... غير شريف !

فكرع « نزهى » من زجاجة « البراندى » واخذ بيدى يضغطها بشدة ، وقال :

- حسبك .. حسبك .. لا تلفظ بكلمات الكرامة والشرف والنبل ياصديقى العزيز

ورفع عقيرته بقوله :

- اتريد ان نكون انا وانت وحدنا نبيلين شريفين كريمين نتصرف فى حدود اللائق ... الست ترى الدنيا من حولنا كيف تجرى فيها الامور ؟ الست ترى فى اى جو نعيش ؟

وصب فى فمه جرعة ثالثة ، فاجتذبت الزجاجة من يده وصحت به :

ـ لقد افرطت فى الشرب . . . وكفى !
ـ لماذا تمنعنى ان اشرب ؟ الا تحفظ القولة المأثورة : « اليوم خمر » ؟!
ـ وهل نسيت تكملة الجملة : « . . . وغدا أمر » ؟!
تحملق « نزهى » فى وجهى مليا ، وهو يرسل ضحكات متشعثة ، وقال :
ـ هذا خطأ . . . ليس هناك امر . . . اليوم خمر ، وغدا خمر . . . وبعد غد يلتقمنا القبر . . انه ينتظرنى وينتظرك . . .القبر يا حبيبى « سمرى » . . . الحقيقة العظمى فى الحياة ، والنهاية الخالدة لكل حى . . . وما عداه هراء !
ـ ولكن يا « نزهى » لا تنس أن للحياة اهدافا . . . أتضيعها ؟!
توقف « نزهى » باسطا لى ذراعيه ، فاغرا فاه ، وقال :
ـ حقا . . . ذكرتنى . . . نسيت الاهداف . . . اين الاهداف ؟ . . فلتحى الاهداف !
وهجم على ينتزع الزجاجة منى ، وهو يردد :
ـ اين الاهداف ؟ نسيت‌الاهداف . . . فلتحى‌الاهداف !
فوجدتنى ارفع الزجاجة الى فمى ، أرويه بجرعة ، ثم اسلمت‌الزجاجة اليه ، وجلسنا على الطوار فى ركن من‌الطريق نتساقى ونتضاحك ، وشعرت براسى يدور ، وبصرى‌يزيغ وماهى الا أن رأيت « نزهى » وقد عرته جهامة ، واستغرق فى صمت . . . وبغتة سمعته ينشج ، فجعلت ارقبه فى قلق فاذا نشيجه يزداد ، فطفقت امسح على راسه الاطفه ، واقول له :

ـ خفف عنك ! فيم تنشج ؟

فارتفع نحيبه ، وقال :

ـ هل تعلم انى فقدت اللوح الفنى العظيم الذى رسمته : « المدفع » ؟.. فقدته الى الابد ... لقد مزقته شر ممزق ، فى ساعة يأس مرير ... لقد كان لى هدف عينته لنفسى ، هو ان اقيم معرضا فى « روما » ، وان يكون هذا اللوح عروسا فيه ... اما الآن فلا معرض ... ولا عروس ... ولا هدف !

ـ ٩ ـ

الخامس والعشرون من مايو سنة ١٩٥٢

يا للسهرة الماضية التى شربت فيها « البراندى » حتى ثملت .. لقد كلفتنى ثمنا غاليا ... لقد الزمتنى السرير أياما متوالية ، وجددت لى نوبات السعال ، وتركتنى انفث الدم عودا على بدء ... فاستبان فى الهزال ، وازددت ضعفا على ضعف ... وماان استشعرت بعض العافية ، حتى ثرت على رقادى الممل ، وغادرت البيت ، غير مكترث بالحاح أمى على ان اظل رهين الفراش ...

عدت استمرىء حياة التصعلك والشرود ، اخرج اياما وتقسرنى العلة على الاعتكاف بعض حين ... ورايتنى مستخفا بشأنى كله ، لا أجد فى الدراسة الا عبثا من العبث فاذا ضمتنى الكلية شعرت بانى سجين ، وكان يشركنى فى هذا الشعور كثير من الطلاب ، نلتقى فى ارجاء «الجامعة» حلقات ، فنسير مخفوضى الرءوس ، نتداول الاخبار ،

ونتطارح الاحاديث فى همس ، وعلى وجوهنا سخط واكتئاب . وكنا نحس بأن الايام مقبلة بنا على امر جسيم لا نكتنه مداه ، ولا نعرف عقباه . . .

اما صاحبنا « عبد الحكيم » ، فقد احتجب عنا شانه ، فكانه اصبح فى عداد الموتى ، لا نذكره الا كما نذكر الراحلين الذين غيبتهم اطباق الثرى ، ولم يعد لهم فى حياتنا حساب . . . واما صلتى انا ورفيقى « نزهى » بالفتيات الثلاث فقد كانت تتوثق يوما بعد يوم ، نتلاقى فى حرية ، ولا نخشى من رقيب !

ويوما ، والشمس مؤذنة بغيوب ، مضيت اجرر الخطا انا و « نزهى » ، فى « شارع سليمان باشا » ، لغير قصد ، والى غير وجهة ، وكانت حافظة نقودى منفضة ، وكذلك كان « نزهى » فى افلاس ، وكنا على شر حال من التأفف والبرم ، نسب الارض ومن عليها ، ولا يروقنا مما حولنا شىء . . . وجنحت الى « نزهى » اقول :

ـ اتراك نسيت موعد الثلاث الاوانس ؟

ـ لست ناسيه . . . . فلنخلفه !

ـ كيف !

ـ واعجبا لك يا « سمرى » ! . . . السنا مفلسين ؟ انذهب للقاء الفتيات وقد خلت من النقود يدى ويدك ؟

ـ علينا ان ندبر الامر . . .

ـ لا حيلة لنا الا السرقة . .

ـ السرقة ؟ حقا . . . فلنكن لصين فى سبيل الحب والغرام !

وفرطت منا ضحكات بشمة ، مالبثت ان اسـلمتنا الى صمت ثقيل ، ولما بلغنا غاية الطريق عند « شارع فؤاد » عدنا ادراجنا ونحن على صمتنا فى وجوم ، ولمااحتـوانا « ميدان سليمان باشا » الفيت « نزهى » يحيـد الى «شارع قصر النيل » المفضى الى « ميدان الاسماعيلية » . فقلت من فورى :

– الى اين انت ماض بى ؟

– لا شىء الا ان نبدل الطريق ، تجديدا للمناظر ... اما كفاك التردد فى شارع واحد ؟

– والموعد يا « نزهى » ؟

فصاح غاضبا :

– اى موعد ؟ الم اقل لك انه لا سبيل الى لقاء الفتيات ، وكلانا مفلس ؟!

فاجبته مغضبا مثله :

– عار علينا اخلاف الموعد ... هذا يجانب المروءة .. يجب ان ندبر الامر

– فليكن تدبير الامر اليك ياصاحب المروءات !

ومررنا « بنادى السيارات الملكى » ، وكنت اسـمع من شانه الكثير ، واعلم انه مثابة السراة والكبراء والحكام ، يمارسون فيه افانين المتع ، ويستمرئون الوان الملذات ، فالقيت عليه نظرة المغيظ ، وقلت لصاحبى :

– هنا ياكلون اشهى الاطعمة ، ويكرعون افخر الشراب ، ويحيون الليالى الملاح فى اللهو المباح وغير المباح ...

فقاطعنى « نزهى » يستكمل ما اتكلم فيه ، فقال :

ـ ولا تسلية لهم الا بذل النقود .. يلعبون بها على المائدة الخضراء ، كأنهم لا يجدون للمال مصرفا الا فى المعابث !

ـ وهذا على حين أن امثالنا لا يجدون فضلة من المال تنقذهم مما يتورطون فيه ، وتحفظ عليهم ماء الوجوه ، وتعينهم على الوفاء بالعهود والمواعيد !

وجاوزنا النادى ، يسبح فى لألاء باهر ، ببابه الخدم والحجاب فى حلل مزركشة ثمينة ، وعلى طريقه صفوف متراصة من السيارات الفارهة الانيقة ، ولاحظت أن « نزهى » يتعهد تلك السيارات بنظرات الاعجاب ، ورايته يقف بغتة امام احداها يتفرج ويتفحص ، وكانت فى ركن محتجب عن الاضواء ، وجعل يهمهم :

ـ أليست هذه سيارة صديقك « شكرى » رفيقك فى « الجامعة » ؟

ـ حقا ... انها هى ... سيارة رشيقة !

ـ صديقك « شكرى » شاب سعيد الحظ ...

فقلت له وهو يدور ببصره حول السيارة فى شغف :

ـ انه سعيد الحظ فى كل شىء ... حسبه انه بهذه السيارة يستطيع أن يجمع صباح كل يوم من « ميدان العتبة » سربا من أترابه الاوانس طالبات « الجامعة » ، فيذهب بهن الى « الكلية »

ـ عرفت منك هذا الحديث .. ما الطفها مهمة ... مرافقة الطالبات الى « الجامعة » فى سيارة خاصة !

ـ انه يعتز بهذه المهمة ويفخر ..

ـ ما أسخفه !

ـ وما أشد رقاعته !

وتابعنا سيرنا ، تنعت « شكرى » بألفاظ ترادف الرقاعة والسخف ، ثم أمعن « نزهى » فى صمت ، واذا هو يقف بى ونحن فى « ميدان الاسماعيلية » ويأخذ بذراعى لنعود فقلت :

ـ الى اين ؟

ـ نرجع من حيث اتينا ... الى « شارع قصر النيل » ... السنا نتسكع ؟ افى ذهنــــك وجهة سير ؟ ان كانت لديك فاخبرنى !

ـ وجهتى باب حديقة النهر ... الا تذكر ؟ لقد حل الموعد ، والفتيات الثلاث هنالك ينتظرن

فتضاحك « نزهى » ، ولم يغضب من هذا الحديث كما غضب من قبل ، ومسح على كتفى يقول :

ـ فلينتظرن ... ما اسوا حظهن ، اذ اوقعتهن المقادير فى صديقين ليسا من طراز « شكرى » الذى يملك سيارة رشيقة ، وفى مستطاعه أن يمضى بهن فيها للنزهة ، كما شئن وشاء !

وسرنا نتمهل ، غير بعيد من « نادى السيارات الملكى » وواجهتنا السيارات المصفوفة على جانبى الطريق ، فأخذنا نحدق ونتفرج ، ولما دنونا من سيارة صديقى « شــكرى » خفف « نزهى » من خطوه ، ودار بنظره حوله ، ثم امسك بذراعى يميل بى نحو السيارة ، وما ان حاذيناها حتى أسرع « نزهى » يفتح بابها دون تكلف ، كأنها سيارته ، وقبل ان انطق بكلمة ، دفعنى الى الدخول ، واحتل هو

مكان القيادة ، وسرعان ما تحركت السيارة ، وقد الجمت الحيرة والدهشة لسانى . . .

وفى خطفة البرق كنا فى « ميدان الاسماعيلية » بجوار مبنى الثكنات ، فقلت :

ـ ما هذا يا « نزهى » ؟

فاسكتنى يقول :

ـ يجب اولا ان نعبر جسر « قصر النيل » . . .

وطوت السيارة بنا الجسر ، والافكار المهوشة تتناوح فى راسى ، وفى « شارع الجزيرة » عن كثب من حديقة النهر وقفت السيارة بمناى عن الاضواء ، وقفز منها « نزهى » يقول :

ـ مكانك . . . ساعود اليك بعد قليل . .

ولبثت فى مجلسى ، اشعر بشىء من الذعر ، واكثرالتلفت حوالى ، حتى تراءت لى اشباح اربعة ، صافحت سمعى من جانبها اصوات معهودة لى ، وشاهدت « نزهى » يفتح باب السيارة ، والفتيات معه يتواثبن داخلات فى تصايح بهيج فقال لهن صاحبى :

ـ على رسلكن يا آنساتى العزيزات ، التصايح ممنوع بامر صاحب السيارة « يسرى السمرى بك » !

وجابهتنى « فلة » تقول :

ـ احقا ياصاحب العزة انكاصدرت امركبمنع التصايح ؟

واردت الكلام ، فكنت انتزع النطق من حلق ادركه الجفاف ، والفيتنى اقول دون ان استطيع استدراك نفسى :

ـ يجب ان يشملنا الهدوء ، حتى نبرح منطقة الخطر

ودقت « ولعة » صدرها بيدها تقول :

ـ خطر ؟ بعد الشر ... اى خطر ؟

وانتظمتنا مجالس السيارة ، على هذا الترتيب : «نزهى» فى مكان القيادة ، لانه كان خبيرا بقيادة السيارات دونى ، وبجواره جلست صديقته البادنة « ولعة » تحشر أوصالها حشرا . اما انا فكنت على اريكة الخلف فى الوسط ، عن يمينى « سمسمة » السمراء ، وعن يسارى صاحبتى «فلة» الشقراء ، وما ان استقر المقام « بفلة » حتى تحسست يدى واطبقت عليها تضغطها فى تشوق ، فطوقت خصرها بذراعى وانا صامت ماخوذ

وسلكت السيارة سبيلها الى « شارع الاهرام » ، وفى بعض الطريق لوت « ولعة » عنقها الى تقول :

ـ لم نكن نعرف ان لك سيارة .. متى اشتريتها ؟

فلم اجد بدا من ان اقول :

ـ منذ وقت قريب ...

فصاح « نزهى » وهو يزيد سرعة السير ، فتمرق بنا السيارة مروق السهم :

ـ انها لقطة ... اشتراها من رفيق له معسور ... مفلس !

فقالت السمراء :

ـ مفلس ؟ العياذ بالله ... اللهم حوالينا ولا علينا ... انا لا احب المفلسين ، ولا سيرة المفلسين !

فقال « نزهى » :

ـ وانا ايضا يا آنستى اكره الافلاس واهل الافلاس .

وهمست « فلة » فى اذنى تسال :
ـ احقا هذه سيارتك ؟
فارتج على ، ولم احر من جواب ، واذا الآنسة « ولعة » تقول :
ـ لا سر بيننا ... يجب ان نتبادل الحديث فى صوت مسموع
فأسرعت « فلة » تقول :
ـ ليس ثمة سر ... كنت أسأل « السمرى » ان يصارحنى اهو صاحب السيارة حقا ؟
فرنت ضحكة « ولعة » وهى تقول :
ـ ليست سيارته .. انها سيارة والدته ... هى التى دفعت الثمن ، وليس من حقه ان يتصرف فى شىء لا يملكه ... لعله خرج بالسيارة دون اذن والدته ... لن تتكرر هذه المرة يا آنستى « فلة » ... خير لك ان تحدى من طموحك يا عزيزتى !
فبهتت « فلة » وعقبت بقولها :
ـ ماذا تعنين يا « ولعة » ؟ اى طموح ؟ لم اقصد من ذلك الى شىء !
فرفع « نزهى » صوته يقول ، وهو يضرب بيده عجلة القيادة :
ـ هدوءا ... ليس هذا وقت مناكفة وتهاتر ...
ثم التفت الى « ولعة » يقول :
ـ لو ان « السمرى » اهدى سيارته تلك الى « فلة » لا قدر الله ، لبادرت بشراء سيارة نقل من اجلك يا «ولعة» ... لاتسعك الا سيارة نقل !

فقالت وقد اخرجت من حلقها نبرات نسوية ساخرة :
ـ سيارة نقل .. ؟ لى انا .. ؟ اما افخر سيارة من احدث طراز واما لا ...

فقالت « سمسمة » وهى تتمصص شفتيها فى تمثيل هزلى :
ـ ياحسرة على ... ليس لى أحد يهدى الى شيئا ، لا سيارة ، ولا عربة كارة ..

فقلت على الفور دون تفكير :
ـ يجب الا ندع « سمسمة » دون صديق تانس اليه .. لابد من البحث عنه ...

فصرخت « سمسمة » مهتاجة :
ـ تبحث لى عن صديق ؟ ليكن فى علمك يا حبيبى انى لو اردت لترامى على الكثير من السادة والكبراء ...

فقال « نزهى » :
ـ صحيح ماتقولين .. ولكن الى ان يحين لك اصطياد هؤلاء الكبراء والسادة ، ساتطوع انا مبادرا اليك ... فهل تقبلين صداقتى يا آنستى المليحة ؟

فتبعته « ولعة » تقول له :
ـ صداقتك انت ؟ وماذا يكون شانى معك اذن ؟
ـ لاجديد فى الامر .. ساعد نفسى بينكما معا قاسما مشتركا أعظم ...

وثارت « ولعة » يميد جسمانها المتكتل الضخم ، وحطت على « نزهى » تكيل له الكلمات ، وهى تقول :
ـ خذ نصيبك اذن ايها القاسم المشترك الأنحس !

واختلت عجلة القيادة فى يده ، وسمعنا صوته المخنوق ينشد الغوث ، وشعرنا بالسيارة تترنح ، وكادت تصدمها احدى الاشجار على حاشية الطريق ، فنهضت أنا و «فلة» و «سمسمة» نحول مابين المتنازعين ، ونفض ما بينهما من خلاف

وطفقت السيارة تنهب الطريق ، كأنها تبارى الريح ، وانطلقت اصواتنا بالغناء ، وتطارحنا النكات والأفاكيه ، لتشيع جو الانس والمراح ، وكانت نكاتنا محتشمة متحفظة بادىء بدء ، ثم انقلبت متبذلة فاحشة تنتزع منا الضحكات بلا حساب ، وتحدونا على أن نتغامز ونتقافز ويدغدغ بعضنا بعضا فى جراة وانطلاق !

وانبرت « ولعة » تقول « لنزهى » :

ـ الى اين انت ماض بنا ايها السائق الغفل ؟

ـ الا تعرفين يا آنستى ان صاحب السيارة سعادة « السمرى بك » يدعونا الى العشاء فى « مينا هاوس » ؟

فقالت « فلة » :

ـ العشاء فى « مينا هاوس » ؟ .. اخشى أن يرانا احد

فانتهزت الفرصة اقول :

ـ نستطيع ان نصيب عشاءنا على بساط الرمل فى سكون الليل ، تحت ظلال « الاهرام » ... ساحضر لكم من المقصف ما لذ وطاب !

فقالت « سمسمة » :

ـ اى مقصف ؟ لقد زهدت نفوسنا فى شطائر الفول والفلافل التى تبيعها المقاصف ... لماذا لا نتناول العشاء على موائد « مينا هاوس » ؟

واجبت اقول فى حرج :
ـ اذا اتفقتم على ذلك فلا مانع عندى ، ولكن الاجمل ان تتم نزهتنا فى طريق الاسكندرية الصحراوى ، قبل ان نتناول العشاء ، فذلك اذكى للشهية . . .
وأشرفنا على فندق « مينا هاوس » ، واذا السيارة تقف دفعة واحدة ، وحاول « نزهى » ان يستنهضها ، فلم يفلح ، فقال وهو يقفز منها :
ـ لا جدوى !
ولحقت به اتبين الأمر ، فهمس لى :
ـ نفد الوقود . .
وهمهمت :
ـ ياللكارثة . . . الا من سبيل للحصول على الوقود ؟
ـ نحن كما لا يخفى عليك مفلسان !
ـ والاوانس ؟
وفطنت الفتيات الى أن فى الامر شيئا لايدرينه ، فنزلن عن السيارة ، واقبلن علينا متسائلات ، وما لبثن أن عرفن جلية الخبر ، فكان وقعه شديدا عليهن ، ونشبت بيننا وبينهن مجادلات لم تخل من حدة ، وخاصة حينما جاهرهن « نزهى » بالحاجة الى معونة عاجلة لشراء مكيال من الوقود واسفرت لنا الحقيقة المرة ، فاذا نحن جميعا من الافلاس على درجة سواء !
وقالت الفتيات :
ـ ماذا نصنع ؟
فاجاب « نزهى » :

ـ نعود مترجلين ... المشى رياضة مطلوبة علينا ان نمارسها فترة بعد فترة ، ليستفيد منها الجسد ، نحن محتاجون اليها ، ولا سيما الآنسة « ولعة » ...

ولم تصادف مداعبته استجابة ، بل لقد استقبلتها الفتيات بامتعاض ، وما لبث امتعاضهن ان استحال مهاترة وشتيمة ، كان « لولعة » فيها النصيب الأكبر ...

وفيما نحن نعالج الأمر ، اذ أهاب بنا صوت خشن ان ننقاد له ، فالتفتنا نتعرف الصوت ، فواجهنا شرطى يأمرنا ان نصحبه الى المخفر ، فكدت اصعق من هول ما أسمع ، وفى لمحة أبصرت « شكرى » رفيقى فى « الجامعة » وهو صاحب السيارة نفسه ، فأحسست دوارا يصدع راسى ، وغمامة تنسدل على عينى

واختلطت على المشاهد والاصوات ، فكأنى فى دوامة من الموج عاتية ، لا أعى ماذا قلت ، ولا ادرى ماذا فعلت ...

ورايتنى مسوقا مع الجميع الى دار الشرطة ، فأحاطونا بشباك من التساؤل والاستفسار ، وماكان لنا أن نوارب أو نكتم شيئا مما جرى ، فجهرنا بالحقيقة فى خزى وانكسار واختلى الضابط المحقق « بشكرى » فترة قصيرة ، وخرجا الينا معا يتضاحكان ، ثم دنا الضابط منى أنا و « نزهى » يهز كتفينا ويعلن قراره الحاسم :

ـ لقد رضى صاحب السيارة « شكرى بك » ان ينزل عن شكواه ، نظير ترضية هينة يلقاها منكما ...

فقال « نزهى » :

ـ ماذا يرضيه ؟

ـ ان تعودا ادراجكما الى المدينة حافيين ...
فشهقت أنا و « نزهى » نقول :
ـ حافيين ؟ كيف ؟
وتناهت الينا ضحكات نسوية على مقربة ، وماهى الا
تصدى لنا بعض جنود الشرطة ، فانتزعوا من قدمى الحذ
والجورب ، وكذلك صنعوا « بنزهى » ، ثم القوا بنا ا
الطريق ، ودار الشرطة تعج بالتضاحك والاستهزاء
وسرنا على الطوار ، انا و « نزهى » ، نحاول ان نروض
اقدامنا على السير ، دون حذاء يقيها وعثاء الارض الصل
الباردة
وسمعت « نزهى » يبعث من حلقه ضحكة استخفا
وهو يقول :
ـ لم أكن اقدر حق التقدير فضل ولاة الامور فى مكافح
الحفاء ، الا فى هذه الساعة ! .. ما اقسى الحفاء ! .. مساك
اولئك الحفاة ، ونحن لاندرى !
ولم يكد « نزهى » يفرغ من قوله ، حتى شاهدنا
كثب منا تلك السيارة التى كنا فيها ، تتهادى فى الطر
يقودها صاحبها « شكرى » نفسه ، فاشرعنا اليها نظرا
الشاردة المضطربة ، فلمحنا فى داخلها فتياتنا الثلاث ، وه
يهتززن على المقاعد ، ويرسلن انظارهن من خلف النوا
ويشاطرن صاحب السيارة ضجة مرحة صاخبة !

— ١٠ —

منتصف يونية سنة ١٩٥٢
ما كان أشقانى بذلك اليوم المشئوم الذى جرى في

حادث السيارة على طريق الهرم . . . لقد اشتدت من اثره وطاة المرض على ، فاحتبست فى البيت ، وانا احسب انى موف على هلاك محتوم

واكبر ما امضنى من ذلك اليوم العصيب شعورى بالهوان من هذه الفعلة الفاضحة ، وهى اشتراكى فى المضى بالسيارة دون اذن من صاحبها او علم . اضف الى ذلك تلك العقوبة الغريبة الموجعة التى ذقت مرارتها الاليمة ، وهى عودتى الى الدار حافيا انتعل اديم الأرض على طول الطريق

لقد تسامع بتلك القصة جمع ممن يتصلون بى ، فلاكتها السنتهم الطوال ، ونفخوا فيها من روحهم حتى تمخضت عن اشياء لم تكن منها قبل ، واتخذوها نكتة رائعة يتملحون بتردادها فى المنادمات والمسامرات

اما أمى فانها اقتضبت الحديث فى شأن هذا الحادث ، ولم تكن قاسية على ، فقد شغلها القيام بتمريضى على النحو المألوف ، لا ترجو الا ان تعاودنى العافية

وتواردت الايام ، وانا اعانى وحدة موحشة ، وقنوطا مريرا ، حتى لقد اضربت عن قراءة الصحف والمجلات ، وزهدت فى الاستماع الى المذياع ، ولبثت فى براثن هذا اليأس الساحق ، لا عمل لى الا ان اعد الساعات التى تمر مرتقبا شبح الموت ، واجدا فيه خلاصا هو نعم الخلاص

وكنت كلما دانيت الركن المقدس فى البيت ، ركن المخلفات التى تتضمن ماكان لأبى من مآثر وامجاد فى خدمة الوطن ، ارانى قد انسللت من الركن انسلال الهارب ، كأنى اتهيب ان تقع عينى منه على شىء

وانقطع « نزهى » عن زيارتى اكثر من اسبوعين ، ث
وصلنى بعد هذا الانقطاع ، فأحسست الارتياح لمقدمه
والأنس به ، وما ان اطمان به المجلس ، حتى قال :

ـ لم يكن فى حسبانى انك مازلت ملازما الفراش ..
ظننتك تختلف الى « الكلية » ..

وجعل ينقل فى الحجرة نظره الشرود ، فقلت له :

ـ اصدقنى ... ماذا ابطا بك عن زيارتى هذا الوق
الطويل ؟

فلم يجبنى هنيهة ، ثم قال وهو ينحرف ببصره عنى

ـ وماذا تبغى من زيارتى لك يا « سمرى » ؟ احـ
بانى اصبحت عنصرا غير صالح ، وما اريد ان اجنى عل
غيرى .. فليكن كل فى طريقه !

فقلت له فى اخلاص :

ـ لست احسن منك حالا .. فانى احس بمثـ
ما احسست !

ـ فلنعترف باننا فى ضلال ... ولكن كيف السبيل ا
تغيير ما نحن فيه ؟ .. ماذا نعمل ؟ انى غير قادر على
شىء ... لكانى تائه فى بيداء لا استبين سبيلى ! .. كلا
تائه يا صديقى ، ولكن يجب الا نظلم انفسنا ، فالبلد ك
فى مثل هذا التيه ... الشعب كله يتخبط فى الظلام ا
والزعماء الذين نعقد بهم الرجاء يرعون مصالحهم الخاص
على حساب الوطن الحائر ، الشائعات مستفيضة ، والصحف
لا تذكر الحقائق الا لمحا ، فالى اى مصير نحن مسوقون ؟! ال
وقدمت علينا أمى تحمل صينية القهوة ، فتناول «نزهى» ع

قدحه ، وشرع يترشفه ، ولاحظت أمي أننا لا نتناقل الحديث فعمدت الى المذياع تدير مفتاحه ، فاذا المذيع يقرا بيانا حكوميا ضافيا تعلن فيه الوزارة عزمها على انجازمشروعات جسام تهدف الى رفع مستوى الشعب ، وتؤكد اصرارها على أنها لن تساوم فى حقوق البلاد ، بل تطالب بها كاملة غير منقوصة

فنهض « نزهى » يقول لأمى فى ضراعة :

ـ استأذنك فى اغلاق المذياع .. كفانا تخديرا ومطاولة !

وما عتم ان ادار المفتاح ، فانقطع الصوت ، وعاد «نزهى» الى مقعده ناكس الراس ، يرعى قدح القهوة بنظرة كليلة وشملنا صمت يائس كئيب !

— ١١ —

الحادى والعشرون من يونية سنة ١٩٥٢

مازلت أسير الدار ، فى أسوا حال .. الجسم واهن ، والنفس محمومة ، والفكر فى بلبال ... وكان « نزهى » يختلف الى ، ويطيل الجلوس معى ، ويفضى الى بما يروج له من الانباء والاحداث :

هنالك ازمات وزارية متلاحقة ، والساسةالذين يتعاورون الحكم متدابرون يكيد بعضهم لبعض ، ويشغب بعضهم على بعض ، ثمة فضائح شنيعة ، ورشوات جسيمة ، تتناقلها الالسن ، وترمى بها الرءوس والاقطاب ، لقد اصبحت اداة الحكم ناخرة يعيث فيها السوس ، وليس بمجد فى اصلاحها علاج .. ثمة زعماء غير راضين عن هذا السوء ، يؤلمهم ان

يشقى به الوطن واهله ، ولكنهم فى صمتهم ساهون ،عزائمهم
خوارة ، وسواعدهم هشة ، فلا امل فى ان يكون منهم قادة
يستنقذون سفينة الحكم من ملتطم الامواج . لكأن تثاؤبة
عريضة تدور على الافواه ، يصحبها التمطى والاغفاء ، فاذا
استيقظت العيون على وقع الاحداث ، لم يكن ذلك الا ريثما
يهدأ الوقع ، ويسكن الصدى ، ثم يعود التثاؤب يملأ الأفواه
والاغفاء يغشى العيون !

واجدنى اقول لصاحبى « نزهى » :

ـ اما لهذا الليل من آخر ؟

فيسرح بصره فى الفضاء ، ولا يحير من جواب

واخبرنى « نزهى » بانه قصد الى قرية « الهماميل »
ولقى هناك فى القهوة الحاج « سويفى » وغلامه « فلافل »
فشكا له كلاهما ما يعانيان من ضنك وقلق ، لا يخصهما
وحدهما ، وانما يعم اهل القرية . وانهما سالا فقيه المسجد
الشيخ « عمران » فى هذا الخطب ، فاجابهما بان هذه محنة
يمتحن الله بها عباده العصاة ، ليذكروه وينيبوا اليه ، عسى
ان يمن عليهم بعفو منه ورضوان . . .

واسترسل « نزهى » يعبث بالقلم فى يده ، ثم استأنف
حديثه يقول :

ـ نسيت ان افضى اليك بنبـا يهمك .. ان رفيقك
« شكرى » صاحب السيارة المعهودة ، قد حل محلنا فى
مصادقة الفتيات الثلاث ، فقد رايتهن معه غير مرة ، انهم
الآن ستة ، ثلاثة شبان لثلاث آنسات !

فعاجلته اساله :

ـ و « فلة » ؟

ـ لقد اختص بها « شكرى » .. أما البدينة « ولعة » فقد اختير لها صبى قمىء ، على هيئة « أبى فصادة » ، وأما السمراء « سمسمة » فقد انتهت الى اصطياد شاب عليه سمات أهل الريف .. هذه الرفقة الطريفة تجوب الشوارع ، وترتاد الاندية والمطاعم والمساهر ... شاهدتها فى « ملهى نفرتيتى » ، ولمحت « فلة » تراقص « شكرى » فى دلال مفضوح ، لقد جاوزت طور التمرين ، واصبحت الآن مدربة تتقن فن التماجن والملاعبة !

فغمغمت فى الم :

ـ الخائنة ... النذلة !

فأجابنى وهو يلوح بيده :

ـ لا خيانة فى الامر ولا نذالة ... لقد طالما كنت تردد كلمات الكرامة والشرف والنبل أكثر مما ينبغى .. ضيقت على نفسك يا عزيزى فى غير طائل ! ... الا تعترف الآن بانك كنت مغاليا فى احساساتك الرفيعة يا سيد «سمرى» ؟

فخفضت راسى ، لا ادرى بماذا اجيب ...

ـ ١٢ ـ

السابع والعشرون من يونية ١٩٥٢

قضيت الاسبوع الفائت كما كنت من قبل ، سليبالقوى طريح الفراش ، تدور بى احلام اليقظة كل مدار ...

ولكنى اليوم خير منى بالامس

زارنى صاحبى « نزهى » ، وجلس الى ساعة ، ومنذ

فارقنى وانا مهتاج الخاطر ، لا يهدا لى بال ...

لقد اقبل على ، واخذ يتلفت حوله ، ثم تدانى من
يهمس :

ـ وردتنى رسالة من صديقنا « عبد الحكيم » ، وكا
وصولها الى من طريق سرى ...

فانتفضت فى فراشى ، وحدقت اليه اقول :

ـ اين الرسالة ؟

ـ أكان يقع فى خلدك انى احتفظ بها فى جيبى ، حت
اطلعك عليها ؟ ما ان قرأتها حتى مزقتها كل ممزق ، ث
القيتها طعمة للنار !

واقتعد كرسيا بجوارى ، وانشا يقول :

سأذكر لك ما احتوته الرسالة ... ان « عبد الحكيم
يصف حياته فى المعتقل ، فهو واخوانه هنالك كأنهم فى جحي
من الضيق والقلق والاختنـــاق ، انهم لا يشــكون ف
الاعتقال شيئا من التعذيب والتنكيل ، فاكثر الحراس عليه
يشركونهم فى الميول والآراء ، ويضمرون لهم العطف والمسا
وقد أكد لى أن الجو تتناثر فيه الارهاصات بأن ثمة احدا
وشيكة الوقوع ، فالاختلال فى البلد بالغ اقصاه ، وليس
لمثل هذه الحال من دوام ... ان « عبد الحكيم » يهيب ب
أن نشحذ الهمم ، ونشد العزائم ، وننير افكار الناس ، حت
يكونوا من قابل أمرهم على أهبة ، وقد اوصانا بأن نحرص
على الكتمان ، وان نكون على حذر من الرقباء والوشاة ..
وفى ختام رسالته يكرر أن مطلع الفجر منا قريب

ـ ماذا يقصد على وجه التحقيق ؟

ـ لست أدرى .. ولكن رسالته تختلج فيها روح التفاؤل بالغد ، والايمان بالمستقبل ، والثقة باننا مقبلون من أمرنا على جديد ...

ـ وماذا تنتوى أن تفعل ؟

فعدل بوجهه الى النافذة ، وقال :

ـ لم اطمئن الى خطة بعد ... سأستشير فيما افعل

ـ ومن تستشير ؟

ـ رفاق « عبد الحكيم » واعوانه ...

ـ لاتنس المحاذرة ...

ـ سأحاذر ما استطعت ...

وتحلحل عن الكرسى يخترق الحجرة ، فى جيئة وذهوب ثم وقف عندى يقول :

ـ لابد ان نتخذ لنا فى الحياة طريقا غير الذى كنا نسلك ... حسبنا ما افرطنا فيه من اعوجاج معيب

ـ وماذا نستطيع ان نصنع ؟

ـ اذا عجزنا عن ان نصنع شيئا ، فلا اقل من ان ننتظر فى يقظة ، وان نرقب ما يكون على اهبة ...

ونظر فى ساعة يده ، ثم قال :

ـ انى على موعد مع صديق ، وقد حان الموعد ، اودعك وسامر بك ...

وشد على يدى ، باسم المحيا

اطلقت العنان لافكارى ، فيما نقل الى « نزهى » من رسالة صاحبنا « عبد الحكيم » ، وفيما عقب به على هذه الرسالة ... وسرعان ما رايتنى انهض ، واقصد الى

والدتى ، واطلب اليها أن توافينى بطعام ... فانى شعرت
الآن — بعد ان لم اكن اشعر منذ وقت طويل — بفرط
الرغبة فى أن آكل ، لقد ثارت شهيتي ، ولقد عجبت لذلك
من نفسى ، وتهللت أمى لهذه الرغبة ، اذ كان مما يحزنها
ويطيل همها أنى مصدود النفس عن الطعام ، ونشطت
تجهز لى حساء الدجاج ، وما ان أحضرته لى حتى أقبلت
عليه فى شغف ، فلما فرغت — او على الاصح : امتلأت —
طلبت الى امى ان تناولنى الدواء المقوى ، فجرعت منه
جرعة وافية ، وأمى فى دهشة مما أفعل ، ثم قلت لها وانا
ملتمع العينين :

— ارغب فى ان اعاود اخذ الحقن التى أوصى بها الطبيب
الا تستدعين الممرضة لتبدأ ...

فشاعت على وجه أمى بسمة ارتياح وقالت :

— سأقصد اليها على الفور ....

وانصرفت عنى تتزيا للخروج ، فاتجهت انا الى ركن
الذكريات المقدس ، ذلك الركن الذى يزخر بامجاد ابى فى
الدعوة الى النهوض بالوطن ، والجهاد فى سبيل حريته
وكرامته ... بى حنين الى الانس بهذه الذكريات الغالية ..
شدما انا شيق الى ان اتحدث الى ابى ، ان استلهمه النصح
والتوجيه ، أن يفتينى فى امرى : كيف استبين سبيلى ؟!

— ١٣ —

العاشر من يولية سنة ١٩٥٢

انا حتى الساعة حليف الدار لا ابرح ... ولكن شتان

بين يومى وامسى ، شتان بين مريض يصدف عن طعامه ودوائه ، ومريض يعنى بالطعام والدواء ما استطاع ...
لقد تبدلت حالى ، وراجعتنى العافية بقدر ملحوظ
زارنى صديقى « نزهى » غير مرة ، وقضينا اويقات فى ركن الذكريات ، نتصفح مقالات ابى ، ونتملى صوره ، ونناقش فيما كان له من بلاء حسن فى سبيل الوطن
على ان « نزهى » لم يكن يطيل الجلوس معى ، وكنت اجده سريع الوجوم والاكتئاب ، كأنما يبرح به هم ، وتنوشه حيرة ، فاذا سألته :
ـ ماذا انتوى من عمل ؟
اجاب فى اقتضاب :
ـ لم اقرر امرا بعد ...
ـ بودى ان اعينك ، وسترانى لك خير معوان
ـ حقا يا « سمرى » ، لا غنية لى عنك ، ولكن لكل شىء اوان ... لم يحن الوقت بعد
ـ ومتى يحين ؟
فحدق الى ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق :
ـ عندما تستكمل صحتك ...
فامسكت بيده ، احملق فيه واقول :
ـ اتخفى عنى دخيلة امرك ؟
ـ ليس هناك من شىء اخفيه !
ـ انت تحسب انى هالك ، ولذلك لا تعول على فى امرك ولا تفضى الى بذات نفسك
فواجهنى يقول فى جد وعزم :
ـ لست هالكا يا صديقى ... فدع عنك الوساوس

والاوهام ... أتمم علاجك ، وستحين ساعة العمل الحاسم وليكونن لك فيه نصيب !

- ١٤ -

السابع عشر من يولية سنة ١٩٥٢

انصرم الاسبوع كله ، دون ان يزورنى « نزهى » ، واليوم جاءتنى أمى تنهى الى نبا القبض عليه ، فاظلمت الدنيا فى عينى ، وكدت يغشى على ، وريعت امى ، وبذلت جهدها فى العناية بى ، وسمعتها تهينم :

ـ لم أكن اقدر ان يكون هذا وقع الخبر عليك ، ليتنى كتمته عنك ...

فقلت وانا ادنى قارورة العطر المنعش منى ، اتشمم :

ـ لقد احسنت بى صنعا اذ اخبرتنى ... لا بد ان تفضى الى بكل شىء !

ـ ولكن صحتك يا « سمرى » لا تقوى على الصدمات كما ترى

فقلت متهدج الصوت ، حسير النفس :

ـ صحتى ؟ واية قيمة لصحتى ؟ لم يبق لى بحياتى اهتمام ...

ـ حسبك ان حياتك تهمنى ... من أجلى يجب أن يتم شفاؤك ... من اجلى يجب ان تعيش ... انت كنزى فى دنياى ... انت املى المنشود

ورنت الى تكاد بنظراتها تلتهمنى ، وهى تدانى بين وجهها ووجهى ، وتقول :

ـ عدنى الا تهتم الا بصحتك ... لا شأن لك بأحد ... فلتجانب مواطن الخطر ... اخشى ان يقصوك عنى ... اخشى ان يلقوا بك فى المعتقلات والمحابس ... صحتك لا تحتمل مكاره الحبس والاعتقال ... انج بنفسك يا بنى !

فقلت لها فى هدوء :

ـ وهل تروقك حياتى على هذا الوضع الذليل ؟

فانحنت على تعانقنى وتضمنى ، وقلبها يرجف، واوصالها ترعد ، والقلق آخذ منها كل مأخذ ، كأنما تحمينى أن ينتزعنى منها احد .. واسرعت الكلمات على شفتيها تقول:

ـ تروقنى حياتك على اى وضع تكون ... اريد ان تظل ابدا بجانبى لا تفترق عنى ... اريد ان اراك امامى سليما معافى ، تروح وتغدو فى قوة ... لا تهتم الا بصحتك، لا تشغل نفسك بشىء ... عش لأمك يا بنى ... كن لى يا « سمرى » ...

وجعلت تغمر وجهى بقبلاتها الملتهفة ، ودمعى يمازج دمها السخين ...

- ١٥ -

التاسع عشر من يولية سنة ١٩٥٢

يومان عصيبان مضيا ، لم اذق فيهما طعم السكينة والقرار ... نفسى تحاصرها هموم كأنها رءوس حراب ... انى فى غمرات يأس لم تبلغ بى من قبل ما بلغت بى اليوم وكلما اشتدت على وطأة الضيق ، قصدت الى امى الوذ بها واحتمى ، واراني قد القيت براسى على صـدرها ابكى

وابكى ، وهى تلاطفنى وتحنو على ، حتى تسرى عنى ...

تناهت الى قصة القبض على صديقى « نزهى » بالتفصيل ... لقد دهمته الشرطة فى قرية « الهماميل » وهو فى القهوة جالس ، مع زمرة من الشبان ، يأتمرون بالسلطات ، ويكيدون لها اشد الكيد ، فسيقوا جميعا الى المحبس ، ومعهم الحاج « سويفى » صاحب القهوة ، وغلامه « فلافل » اذ كانا مشتركين فى الكيد والائتمار ...

وجعلت اناجى نفسى :

ـ حتى أنت يا « فلافل » ؟!

وذكرته يوم ضمتنا قرية «الهماميل» فى قهوة«السويفى» حين انبعث « عبد الحكيم » يتحدث عن « الاهداف » ، فقد كان « فلافل » اول من افصح عن هدفه فى سذاجة مخلصة ... وقال :

ـ اريد أن اكون سكرتيرا لنقابة الصحفيين !

وسنحت على فمى ابتسامة هزيلة ، وانسابت من صدرى تنهدة خاشعة ...

ثم نهضت الى النافذة ، وأشمت بصرى فى الدور التى تتزاحم حيالى ، وتسد الافق العريض دونى ، وراسى تتناوح فيه الخواطر ...

لم ابلغ فى الوطنية مبلغ احد ، حتى غلام القهوة« فلافل»! انه اصدق منى وطنية ، واشد حماسة ، واحسن عملا.. هو الآن فى عداد المجاهدين ، مع « عبد الحكيم » و « نزهى » واضرابهما ممن تحفل بهم المحابس والمعتقلات ... انه يحيا بينهم ، يقاسمهم حياة الشظف والعذاب فى سبيل

« الاهداف » ... اما انا ... انا « يسرى السمرى »
ابن « مجاهد السمرى » زعيم الوطنية الطيب الذكر ،
الخالد الأثر ، فمازلت قعيدا فى مكانى ، احيا فى دار منزوية ،
واتقلب على فراش وثير ، واطعم حساء الدجاج فى طمأنينة
وخمول !

وادبرت عن النافذة ، اخطو فى الحجرة ، خافض الراس ،
وانا استمع الى هاجس فى نفسى :

ــ ولكن امك تبغى ان تعنى بصحتك ... والا يكون لك
شغل بشىء ... تريد ان تعيش من اجلها ، وكفى ...
وانطلقت من فمى ضحكة بشعة ، تجاوبت فى ارجاء
الحجرة اصداؤها ، كأنها تسخر مما انا فيه من خيبة
واخفاق !

- ١٦ -

الثالث والعشرون من يولية سنة ١٩٥٢

ايقظتنى من نومى فى الصباح صيحات مجلجلة يبعثها
المذياع ، وفتحت عينى ، فاذا أمى بجانبه تسمع ، فنهضت
اليها اسأل :

ــ ماذا ؟

فأجابتنى :

ــ اصغ لما يذاع ... نبأ خطير ... بيان من قيادة
القوات المسلحة ...

وجعلت اقترب من المذياع ، حتى كدت الصق أذنى به ،
ولبثت انتظر ، حتى اعيدت اذاعة البيان ، فعرفت منه

ان طائفة من رجال الجيش الاحرار قد ضاقوا ذرعا بما
يتفشى من فساد الاوضاع ، وانهم قد هبوا لاستنقاذ الوطن
مما يتهدده من انحلال

وبادلت امى النظرات ، ولسانى تعقده الدهشة
ثم الفيتنى بغتة اقفز فى اهتياج ، واطوق عنق امى بذراعى
واغمرها بالقبلات ، واتصايح :

ـ لقد ثار الجيش . . . لقد حدث الانقلاب !

والتقمت فطورى على عجل ، ثم ارتديت حلة الخروج
وانا اشعر نحوها شعور طفل يرتدى ثوبه الجديد فى يوم
عيد . فقد بعد عهدى بارتداء الحلة ، اذ طالت صحبتى
للمنامة ، وانا ملازم الفراش ، وفوجئت امى بى ، وانا
متهيىء لمبارحة الدار ، فقالت :

ـ ما هذا يا « سمرى » ؟

فقلت فى غير مبالاة :

ـ ساغيب بعض وقت . . .

ـ الى اين تقصد ؟

فابتسمت ، وجهرت بصوتى :

ـ الى اين ؟ الى الدنيا العريضة ، اشهد ما يدور من
احداث . . .

ـ انك لم تستكمل صحتك بعد . . .

ـ صحتى موفورة . . . انى احس بقوة جامحة !

ـ ربما كانت فى الطريق مظاهرات . . .

فقاطعتها اقول :

ـ لا تخشى على باسا . . . ساكون حذرا . . .

وتركت الدار مهرول الخطا ، ومضيت اجوب الشوارع ، فى تطلع مشبوب ...

كانت المدينة على حالها المألوف ، ليس فيها من جديد الا دبابات تجوز ببعض المسالك ، وسيارات تغص بالجنود متنقلة هنا وهنالك ، وزمر من رجال الجيش والشرطة يشرفون على الامن وضبط النظام ...

وكان النـــاس يتصفح بعضهم وجوه بعض ، منهم واجمون يتلقون ما سمعوا فى خشية وتهيب ، ومنهم متسائلون يبغون مزيدا من التعرف والاستفسار ، ومنهم من يتحدثون عن الانقلاب فى تحمس ، مطنبين فى التعليق والتكهن بما يكون

وقفلت الى الدار ، أشد فضولا مما كنت ، مترقبا من الأخبار ما يشفى الغليل

وجلست الى المذياع ، آنسا به ، وبجوارى امى ، نصغى الى انباء حركة الجيش ، وكلانا فى شغف بها اى شغف !

- ١٧ -

الخامس عشر من اغسطس سنة ١٩٥٢

الاحداث الجسام تتلاحق ... ثمة نظم ســـياسية ، واوضاع اجتماعية ، تنهار ، ليقوم على انقاضها جديد من النظم والاوضاع . ونحن لا نفتأ نتلقى انباء هذه الاحداث فى اهتياج وابتهاج

لقد انجاب عن الوجوه ما كان يعروها من دهش ووجوم

تلك هى الحقائق تتجلى ، والاسرار تنكشف ، فلم يعد يرتاب فى جوهرها احد ...

المواطنون تشيع بين جنوبهم حمية ، وهم يتنافسون فى الحفاوة بالقادة من رجال الجيش ، ويلتمسون السبيل الى لقائهم واجتلائهم شاخصين اليهم بمجامع العيون ، يزحمون عليهم كل طريق ، ويصفقون لهم فى كل مكان ، وتشدو السنتهم بأسمائهم صباح مساء !

ان الجمهور على يقين بأن مقاليد الوطن قد القيت الى صفوة من ابنائه منقذين ابطال ، وحماة امناء

اولئك هم الناس يتناقلون الاحاديث فى برامج التجديد والاصلاح والتعمير ، تلك البرامج التى يستقبلها الوطن من اقصاه الى اقصاه فى كل مرفق من مرافق السياسة والاقتصاد والاجتماع

لقد استدبرت « مصر » عهدا من الحيرة ، كانت فيه تتخبط فى ظلام دامس ، وها هى ذى تتلقى سواطع الاضواء فى أمل واستبشار ...

وبينما كنت اليوم عن كثب من المذياع ، استمع الى حديث فى اهداف ثورة الجيش ، غلبت على سمعى فى الدار اصوات تتعالى ، وخفق اقدام تتدانى ، وما كدت التفت لاتبين الامر ، حتى وقع بصرى على جمع مقبلين على ، واذا انا اصيح ، وقلبى يتواثب :

— « نزهى » ، « عبد الحكيم » ، « السويفى » ، « فلافل »

وهرعت اليهم احتضنهم واقبلهم فى ارتباك ، وعيناى يتلألا فيهما دمع السرور

وغمرتنا موجة من الحفاوة ، بعض وقت ، ثم الفينا انفسنا نتحلق حول « عبد الحكيم » ، نصغى الى حديثه عن المعتقل ، كيف زج فيه ، وكيف كان يمضى هناك أيامه ، وكيف كان على اتصال بأهله ورفاقه ، يراسلهم ويراسلونه ، على الرغم من الرقابة المضروبة ، والتحفظ الشديد ... وختم « عبد الحكيم » حديثه يقول فى توكيد وحيوية ، والبريق من عينيه يشع :

ـ كان من المحال ان تمتد بنا تلك الحال ... لقد كان الاختلال والفساد على اسوا ما يكون اختلال وفساد ... كل وضع يجانب طبائع الاشياء مقضى عليه بأن يبيد ...

وقبل ان ينفرط عقد الاجتماع ، وقف « عبد الحكيم » يتوسطنا بقوامه الفارع ، وجعل يتوسمنا فى صمت ، وآنسنا فى نظراته وقدة لم نعهدها فيه من قبل ، فتعلقت به عيوننا نرقب حركاته وسكناته ، واذا هو يتكلم جهير الصوت ، وطيد النبرات :

ـ تذكرون انى تحدثت اليكم منذ اشهر عن « الاهداف » واليوم استبان لكل منكم هدفه ، وليس علينا الا ان نرسم الخطة ، ونبدا التنفيذ ... العهد الجديد يتطلب انشاء منظمات تيسر لكل مواطن صالح ان يبلغ هدفه فى سبيل تقويم نفسه ، ونفع وطنه

وسكت « عبد الحكيم » هنيهة ، يركز بصره فى ، وقال :

ـ ما رايك يا « سمرى » فى ان تسند اليك منظمة الناشئين الاحرار ؟ ستكون لك شعبة خاصة من الفتيان يتلقون عنك التوجيه والارشاد ... سيكون لك ناد ومكتبة وميدان

للتدريب الرياضى والعسكرى ، ومن حقك ان تصدر النشرات ... سيكون تحت امرتك – او على الاصح : تحت رياستك – فئة من الامة ، يوكل اليك اعدادها للوطن خير اعداد . ليس وراء هذا مطمع لك لتحقيق هدفك فى الزعامة الوطنية ، ذلك المارب الذى طالما ابتغيته لنفسك على غير هدى

وكنت استمع الى قوله ، ودقات قلبى تهز ضلوعى ، فما ان اتم كلامه ، حتى ترامیت عليه احتضنه واقبله

والتفت « عبد الحكيم » الى « فلافل » يأخذ بكتفه ويقول :

– لم انس انك ترمى الى هدف عظيم ... ان تكون سكرتيرا لنقابة الصحفيين ... لكى تنال ذلك يجب ان تعمل بادئا مع « سمرى » ... كن سكرتيرا له ... سكرتيرا لشعبة الفتيان الاحرار ... سنرسم لك خطة لتعليمك وتثقيفك ، وستستوفى حظك من التدريب الرياضى والعسكرى حتى اذا دعا داعى الوطن لبيت وانت فى اهبة

فرفع « فلافل » راسه ، وفى نظراته زهو ، وعلى فمه ابتسام ، وطفق يردد :

– سكرتير شعبة الفتيان الاحرار ؟.. عظيم ... عظيم ...

ووجه « عبد الحكيم » قوله الى « نزهى » :

– تكلم انت عن نفسك ...

فانبرى « نزهى » يقول وهو يرفرف بذراعيه :

– لقد شرعت اعيد رسم اللوح الفنى الذى ابتدعته ،

لوح « المدفع » ، وساعرضه فى « روما » فى أول فرصة تلوح ...

وخطا « الحاج سويفى » خطوة ، وهو ينحى على شاربه يفتله :

ــ وانا ما هدفى ؟

فصاح « عبد الحكيم » :

ــ الم تعرف هدفك بعد ؟ الم نتحدث فى المعتقل معا عن معسكر التدريب ؟

ــ معسكر التدريب ؟

ــ نعم ... ساعمل انا فى هذا المعسكر على تخريج الفدائيين ، وساتولى تدريبك ... ستكون فدائيا يا سيد « سويفى » ...

فقال فى دهشة وعجب :

ــ فدائى ؟ فدائى ؟!

ــ ساكلفك الخروج الى مستودع من مستودعات الاحتلال فى القناة ، مستودع للذخيرة والعتاد ، فتلقى عليه قنبلة تدعه هشيما تذروه الرياح ... عمل جليل يكسبك المجد الفريد ... وانت اهل له بماضيك الوطنى فى الثورة المصرية الاولى يا حامل علم الثورة !

ــ اقوم بمهمتى هذه ، واعود اليكم منصورا اتقلداوسمة الفخار ...

فتنحنح « عبد الحكيم » وهو يربت كتف « السويفى » وقال :

ــ امصر انت على أن تعود بنفسك ، كما انت ؟!

ـ ولم لا ؟
ـ تعود الينا محمولا على الاعناق ...
فتطاول « السويفى » براسه ، وهو يردد فى اعتزاز :
ـ نعم ... اعود محمولا على الاعناق !
فتضاحكنا من قوله ، فأخذ ينقل بصره فينا يتعجب
فصاح « نزهى » :
ـ سنحملك على الاعناق ... فى جنازة مهيبة !
فقلت على الفور :
ـ الفدائى مصيره الموت الزؤام ، ولكنه موت اسمى من الحياة ... انه الخلود !
فقال « فلافل » وهو يحملق فى وجه « الحاج سويفى » :
ـ هنيئا لك هذا الخلود !
ومكث الرجل مليا شارد النظر ، ثم اخذ يصلح من شأن شاربه الذى اسرع اليه التهدل ، وهو يقول « لعبدالحكيم » :
ـ تريد ان تقول انه لا امل البتة فى النجاة ؟
ـ ثمة امل ، ولكنه امل ضعيف ...
فانبعث « السويفى » يفرك يديه ، وقد حاد ببصره الى ناحية من الحجرة ، وخاطب « عبد الحكيم » بقوله :
ـ انت تعرف انى عائل اسرة ، ولى اولاد صغار ، الا تجد لى عملا آخر غير هذا العمل ؟ لقد كنت فى ثورة سنة ١٩١٩ احمل العلم ، اتقدم به المظاهرات ، وانادى بحياة الوطن عالى الصوت،ولم يكن احد يستطيع الصبر على حمل العلم كما اصبر ...
ـ اعلم يا حاج « سويفى » انه قد انقضى عهد الهتافات

والتظاهر بالاعلام ، وبدأ عهد الجهاد الحق ، عار عليك يا رجل ان تخشى الموت ... « الحاج سويفى » الذى اراه امامى فى طوله وعرضه يفزع من الاخطار ؟ لم اكن اظن ان الجبن يتسرب الى نفسك على هذا النحو ...

فرأينا الرجل تزهر عيناه ، وهو يقول فى تلعثم :

ـ من قال لك انى اهاب الموت ، او اخشى الخطر ... كل ما قلته انى اريد ان ارجع من مهمتى كما ذهبت وانا حى ... ستجدنى احمل القنبلة ، وانسف بها مستودع الذخيرة والعتاد فى منطقة الاحتلال ، ثم اعود كالجنى لم يمسسنى سوء ...

ـ حسن جدا يا حاج « سويفى » ... هذا املنا فيك !

والقى « عبد الحكيم » علينا نظرة جامعة ، وهو يقول :

ـ لقد عرف كل منا الهدف الذى يسعى الى تحقيقه ، وانا لا نبغى بهذه الاهداف النبيلة الا مصلحة الوطن ... فليعمل كل منا فى سبيله ... والله معنا !

ـ ١٨ ـ

السادس عشر من اغسطس سنة ١٩٥٢

انتبهت من نومى صبيحة اليوم ، وانا استشعر فى اوصالى دبيب القوة والنشطة على نحو لا عهد لى به ، وقد امضيت ليلى كله مستغرقا فى نوم هانىء لم اذق طعمه منذ زمن مديد ... وكان راسى يعج بالخواطر ، تدور حول الاحاديث التى اثارها « عبد الحكيم » ورفاقه فى زورتهم لى امس ...

واصبت فطوری ، ذکی الشهية ، ثم ارتديت حلة الخروج ، فتصدت لی امی تقول :

– فيم خروجك يا بنی ؟ الم تكن ملازما سريرك منذ ايام ؟

فانبريت اقول :

– لزمت فراشی ، لانی كنت مريضا لاقبل لی بالنهوض ، فاما اليوم فانا شخص آخر ، وافر الصحة والفتوة ... اتبغين أن تتثبتی مما اقول ؟

وكشفت لها عن ذراعی ، وقلت لها اتحدی :

– انظری الی هذه العضلات البارزة والعروق المشدودة اليست عضدی تشبه عضد مصارع غلاب ؟

وجعلت أثنی ذراعی وابسطها فی فورة ، ودنوت من امی اقبلها واقول :

– سأعمل فی شعبة الفتيان الاحرار ... ساكون رئيس الشعبة .. . قائدها الاعلی ... اعمل علی اعداد جيل جديد يدرك تبعاته نحو الوطن ... لاكونن زعيما وطنيا كما كان ابی ... جديرا بان تفخری بی ..

وطال بيننا عناق !

العصفورة

الابوة المفجوعة تعمل بواعيتها على أن تخدع نفسها عن حقيقة الموت ، متعلقة بالوهم ، تعيش معه ، وتعيش به ، وتجد فى ذلك راحة البال ...

تواردت الاعوام على « المعلم يونس » وزوجه « شلبية »
وهما يرتقبـــان الولد ، فلم يمن عليهما الزمن به ، حتى
امست حياتهما خواء ، لا بهجة فيها ولا رواء ، يرين عليهما
وحشة وملال

ولكن « القدر » لا يدين بمبدأ البقاء على حال ، والركون
الى وتيرة واحدة ، ابغض شيء اليه ان يرى « الحياة »
على نمط متكرر لا يتغير ..

انه ليبتغى الجدة على اية صورة تكون ، من خير أو شر ،
ومن نفع او ضر ، ومن تقدم الى الامام او رجوع الى الوراء
حسبه الخروج عن مالوف الاوضاع ، لكى يثير فى اعماق
النفوس كوامن الاهتياج

ومن ثم طالعنا « القدر » يوما بحدث كان له اعظم الوقع
فى حياة تلك الاسرة الخاملة ...

لقد رزق الزوجان طفلة !

وسرعان ما شهت فى الدار يقظة عارمة ، واشرق فيها نور
ساطع ، وجلجلت فيها ضجة وعجيج

اصبحت الطفلة ـ منذ ولدت ـ قرة عين الوالدين ،
فهما يغدقان عليها فيض رعاية وحنان

وكان شان الاب مع طفلته عجبا من العجب ، اذ باتت
شغله الشاغل فى يومه أجمع ...

لم يعد يانس الى بهجة القهوة ، وسمر الرفاق ، ولغو
المذياع ...

لا يكاد يفرغ من عمله حتى يفزع الى داره يعتصم بهـ
اى اعتصام ، واذا هو يخلو الى الطفلة ، ويغدو معها طفلا
من طراز طريف ... شيخ شارف السبعين ، يتهدل على
جوانب فمه شارب ناصع البياض ، تراه يحبو على الارض
حبو الرضيع ، دالفا بين الارائك والكراسى يلتمس له فيها
مخبأ يواريه ، ولا يلبث ان يبعث من حلقه صيحة الفزع
والرعب ، اذ تهتدى الصغيرة الى مخبئه ، فتنقض عليه
آخذة بخناقه ، وما هى الا ان تدير حول عنقه حبلا تسوقه
منه كما تساق المطية الذلول ، فينقاد الشيخ فى خضوع
وتكركر الصبية بضحكاتها الرنانة الصافية ، وهى ممراح
طروب ، يزهوها الغلب والانتصار

وعلى هذا النحو تتوالى المعابثات ، ويسود الهيـاج
فينطلق « الطفلان » يعيثان فى البيت فسادا ، يقلبان أثاثه
راسا على عقب ، ويتعالى منهما الصياح ، ويشتد بهما
الركض ، وهما يتدافعان ويتقافزان ، فاذا البيت قد انقلب
ساحة من ساحات الملاعب ، تلك التى يجول فيها ويصول
ذلك النفر من المهرجين والبهاليل

وكان هذا الصنيع يثير حنق « الأم » فتبدو صاخبة
تنذر وتتوعد ، فتهـدأ العـاصفة على الاثر ، ولا يسمع
الا تهامس خافت ، وتضاحك حبيس !

على ان « شيخ السبعين » او بالاحرى « طفل السبعين »
طالما حظى مع صغيرته بساعات سكينة وقرار ، لا استخفاء

فيها ولا انقضاض ، هى ساعات السمر العذب يقضيها الأب مع ابنته منتشيا بحديث انيس ..

تراه يجلسها قبالته على ركبتيه ، ويلف ذراعيها حول رقبته ، ويدنيها الى صدره ، حتى لكأن قلبيهما يتجاوبان بالخفوق . وانه ليقارب بين وجهها ووجهه ، حتى ليتلاقى الخدان وتتواصل الانفاس

لقد اعتصرت سعادة الدنيا كلها فى تلك الجلسة الرخية الحالمة التى يصغي فيها الأب الى صغيرته وهى تقص عليه صورا مما مر بها فى يومها الحاضر ... فهو يصغى ولا يزال يصغى ، مستعذبا رنيم صوتها الموسيقى الخلاب

لم يكن يعنيه مما تقصه عليه من اخبارها الا ذلك الجرس والنغم ... فكأنه يستمع الى « عصفورة » تسقسق له فى نبرات حلوة صافية

عصفورة ؟ اى والله عصفورة !

اليست صغيرته شبيه هذا الطائر الرشيق الجميل ؟

انها عصفورة فى خفة وثباتها على الأرض ، كأنما لهـا اجنحة تهفو بها فى الهواء ، عصفورة فى رشاقة قدها الضئيل الغض ، عصفورة فى شمائلهـا اللطاف وهى تهز راسـها الدقيق يمنة ويسرة ، رامية بنظراتها اليقظة الألاقة هنـا وهناك . عصفورة فى لحن حديثها الأغن ، لحن البلابل حين تتناجى على الغصون فى الليلة القمراء !

انها عصفورة فى كل شيء مما لها من خصائص وسمات ، حتى ان الأب لم يعد يذكر لها اسما الا اسم « عصفورة » يجريه على لسانه كلما ناداها وناجاها :

تعالى الى احضانى يا « عصفورة » ... اسمعى منى حكاية يا « عصفورة » ... قبلينى يا «عصفورة» .. أبوك يحبك يا «عصفورة»... كيف قضيت يومك يا«عصفورة»؟

وكان أول ما تلفظه الطفلة من قول ، وهى ترحب بأبيها فى أوبته الى البيت حين تهرع اليــه باسطة ذراعيها فى تشوف ، أن تسأله :

ـ ماذا احضرت اليوم معك لعصفورة ؟

فيخرج لها قرطاسا من حلوى ، أو لفيفة تنطوى على لعبة ملونة ، أو حلية من معدن براق

فتجتذب « العصفورة » هديتها على تشوق واهتياج ، وهى تتصايح وتتواثب فى خفة ذلك الطير الرشيق !

وفى يوم من أيام « الجمعة » ترك الأب المسجد بعد أن أدى الصلاة ، وساقته قدماه فى طريق غير الذى الف أن يعود منه ، فاخترق دربا لم يكن له به عهد ... وصادفه بائع فطير يعرض بضاعته على صينية رحيبة ، تقوم على محمل من جريد ، ينتحى بها جانب الدرب المسلوك ... واجتذب ناظره مرأى الفطائر وهى تلتمع فى شرابها المتسايل متألقة فى وهج الشمس ، فألفى خطاه تحيد نحوها ، واحس بأنفه يتشمم عبير الشراب الذكى ، وخطرت « عصفورة » بباله على الفور ، فهذا الفطير خير ما يقدم لها فى « يوم الجمعة » المبارك . وعجل الرجل الى البائع يشترى منــه فطيرة سمينة تغرق فى شرابها اللماح ، وانتهى الى داره يحمل الفطيرة فى دثار من لفائف واقية

ولمـا تخطى عتبة الدار ، برزت له الصبية قافزة تسأله

ماذا جلب لها معه ، فاقتعد الأرض ، وأجلس « عصفورة » على ركبتيه ، وفض اللفيفة ، فتجلت الفطيرة منتفخة شامخة تسبح في شرابها الشهى ، فصفقت الصغيرة من طرب ، وصاحت تقول :

ـ اهذه لى . . . كلها لى ؟

ـ هى لك كلها يا « عصفورتى »

وطفق الأب يقتطع من الفطيرة لقيمة اثر لقيمة ، و « العصفورة » تتلقى اللقيمات فتلتهمها فى نشوة ، فسالها ابوها :

ـ هل اعجبتك الفطيرة ؟

ـ حلوة . . . حلوة !

ولم تلبث ان تشبثت برقبته ، وقبلت فمه قبلة جامحة احس الأب على اثرها بالشراب الحلو يندى شفتيه ، فلعقه مستطيبا اياه ، وقال :

ـ ساحمل اليك كل « يوم جمعة » فطيرة مثل هذه الفطيرة . . .

وبر الأب بوعده ، فداب على ان يخترق الدرب المعهود ، بعد ان يفرغ من صلاته ، ويقصد الى بائع الفطير فى ركنه الامين ، يتخير من فطائره فطيرة سمينة ريانة بالشراب المعسول ، ويعجل بها الى داره ، فيطعم عصفورته اياها لقيمة لقيمة ، وهو جذلان النفس بما يرتسم على محياها الوادع من بشر وابتهاج

واحتلت « فطيرة الجمعة » من قلب « العصفورة » اسمى مكان ، فكانت تتحدث عنها ، وترتقب موعدها ،

فيزداد الأب من حرص على شرائها كلما انفتل من صلاة الجمعة ، وانه ليذكرها فى قيامه وركوعه وسجوده ، وهو يكبر الله ويسبح له فى هذا الحشد الزاخر من المصلين ، متمثلا عصفورته وهى تطعم اللقيمات مستمرئة ، يتسايل على جوانب فمها الشراب اللماح

وتواصلت الايام ، فتواصلت معها هذه الحياة الجياشة التى ارتجت بها انحاء الدار ، بعد ان كانت مثابة الملالة والعبوس والاستيحاش

ترى ماذا كان من امر « القدر » ازاء هذه الدار التى استقر بها القرار ؟

اترى « القدر » ضاق ذرعا بما يترسل على الدار من اشراق ولالاء ، اذ وجد فيه لونا من الثبات والاستمرار لا يتفق وجوهر الحياة ؟

هل يرضى « القدر » حالا واحدا ، ونمطا راتبا ، لا يعروه تحويل ولا تعديل ؟

ان دوام الحال من المحال ، وان « القدر » ليحن الى أن يجدد فى الأزياء والانماط والصور ، فلتاخذ تلك الدار نصيبها من تجديد لا معدى عنه لشىء فى هذا الوجود !

رفع « القدر » صولجانه الخالد ، وهزه فى الفضاء هزة خفيفة ، فاذا « العصفورة » يدهمها مرض عضال ، واذا هى تقضى نحبها فى سويعات قلال !

وهكذا طارت « العصفورة » من عشها الأمين ، فطار معها الاشراق واللألاء ، وطارت اليقظة والصخب البهيج ، وعاود الدار خمول وكآبة خرساء !

اجل ، عاود الخواء هذه الدار من جديد ، ولكنه خواء
كله تعذيب وتلويع وايلام ، خواء يطعن ولا يقتل ، يطحن
ولا يفنى ، يميت القلب كل ساعة ثم يحييه ليعانى كربات
الموت عودا على بدء !

ومرت الأيام . . .

وجثم على صدر « المعلم يونس » تبلد ما أشبهه بسبات
عقيم . . . لكانه تائه فى اضغاث حلم مفزع مهوش ، تتنافر
فيه المشاهد ، وتتباين الصور والاوضاع . . .

وكان احيانا تتخايل له فى أعطاف هذا الحلم مرائى عزيزة
عليه ، محببة اليه ، ينعم بها لحظات فى اعذب الذكريات . . .
ولكن سرعان ما تتكاثف الغيوم حواليه ، ويعلو زئير
العواصف دونه ، وتثور الكائنات امام عينيه مسعورة ،
كأنما قد اصابتها جنة ، وتهطل الأمطار الغزار متدفقة ،
كأنما السماء قد انشقت فاندفق السيل الحبيس ، وتدور
بالرجل غوارب الموج بين تصعيد وتصويب . . .

فاذا أمسكت العواصف ، وصحت السماء ، استيقظ
الرجل يمسح فى مآقيه بقايا الدمع السخين . . . وبغتة
ينبثق فى راسه خاطر ، فينهض مستوفزا يتلفت وهو
يتساءل :

ـ أليس اليوم « يوم الجمعة » ؟

ويجد الرجل فى سيره على الطريق نحو المسجد ، ويقف
بين صفوف المصلين مصغيا الى شيخ المنبر وهو يقرع
الاسماع بوعظه الرنان . ولكن الرجل لا يعتم ان تبرز فى
مخيلته « فطيرة الجمعة » مالكة عليه مشاعره ، فيتمثلها

على صور اشتات ، كيف كان يتخيرها سمينة ينساب
فوقها شرابها اللماح ؟ كيف كان يطويها فى دثارها من ورق
غليظ ؟ كيف كان يحرص على ان تظل منتفخة سوية
حتى يبلغ بها الدار ؟ كيف كان يجلس « عصفورته » على
ركبتيه ليلقمها الفطيرة قطعة بعد قطعة؟ كيف كان يرقب ذلك
الفم الدقيق وهو يزدرد اللقيمات فى شغف واستمراء ؟!

واشتد وجيب قلبه ، وهو بين يدى الله يؤدى الصلاة
فما كاد يخرج من صلاته بالتسليم يمنة ويسرة ، حتى
مرق من الصفوف يختطف نعليه ، ويعدو الى الدرب المعهود

ذلك هو بائع الفطير فى ركنه المختار ، وامامه الصينية
تتراصف عليها الفطائر المبرقشة وهى تتالق فى وهج
الشمس ... انه ليدنو منه ، وانه لينتقى فطيرة سمينة
يطويها فى دثار غليظ ، وانه لينصرف متابعا سيره ..
ولكن الى اين ؟!

هاهوذا ينحرف عن الطريق المفضى الى الدار ، ويتخذ
سبيله الى الصحراء ... خطواته سراع ، وانفاسه مبهورة
ويده تحمل اللفيفة فى عناية وحرص ... اثمة من يرتقب
وصوله ، فهو لا يستانى فى سيره ، حتى لا يطول انتظار
من ينتظره هنالك فى عالم الصمت والسكون ؟!

تابع الرجل خطاه ، وعيناه ثابتتان فى محجريهما كانهما
عينا تمثال لا تطرفان ، وقلبه يخفق كانه بين جنبيه طائر
يرفرف بجناحيه

واخيرا لاحت له المدافن ، تحتل بسيطا من الارض
كانها مدينة عامرة ، فهذه ابنية مشيدة ، ومسالك ممهدة

وتلك رياض خضر ترويها الجداول وتنبت فيها الوان الازاهير

وانتحى الرجل ناحية متواضعة مستوحشة ، تتعالى فيها الرمال ، وتتناثر الاحجار ، وتتطامن بينها قبور عفت عليها الايام ، وعملت فيها يد البلى والانهيار ...

وهنالك ، امام قبر صغير ، يبدو من طلائه الابيض الناصع انه حديث عهد باستقبال ضيف ، مثل الرجل خاشعا يهمهم بأدعية وتسابيح ... وما هى الا ان افترش الارض ، وحل وثاق اللفيفة ، فتجلت الفطيرة رقراقة الشراب ، فانكب عليها الرجل يقطعها لقيمات صغيرة فى تمهل وتنسيق ، واحس اصابعه يتساقط منها الشراب قطرات ، فجعل يلعقها مستعذبا ما لها من مذاق ، وعلى فمه طيف ابتسامة يسنح كما يسنح الأمل الشرود

ونهض الرجل يحمل اللقيمات بين يديه ، ثم دنا من القبر فى رفق ، وطفق ينثر على حافته لقيمة لقيمة ، وعاد الى مجلسه يولى القبر نظرات شوق وتحنان ، وتثاقل جفناه ، فارخاهما يتهادى به سبات

واستيقظ « المعلم يونس » يستمع الى صوت اغن ، خيل اليه انه يناديه ... وحانت منه لفتة ، فاذا هو يرى « عصفورة » رشيقة فوق الجدث تحلق وتسقسق ، فجعل ينظر اليها بمجامع عينيه ، فاغرا فمه ، وقلبه يزداد به وجيب . وما راعه الا ان لقيمات الفطيرة التى نثرها على حافة القبر لم يبق منها الافتات ...

ترى اين ذهبت اللقيمات ؟

ودار بعينيه يمنة ويسرة ، وجعل يتبين على مد البصر
هنا وهنالك ، فلم يظهر له أحد ... الا هذه العصفورة التي
تتواثب فى نشطة ومراح ، وهى تلتقط نثار الفطيرة على
حافة القبر ، ثم تبسط جناحيها ضاربة فى الفضاء ، ثم
تهبط على القبر مطيفة به ، حائمة فى تطوافها على الاب
الجالس على اديم الارض ، تسقسق له بصوتها الاغن ،والاب
متعلق النظر بها ، لا تحيد عيناه عنها ، وكأن قلبه يتجاوب
خفوقها بخفوقه ...
ولبثت « العصفورة » على ذلك بعض وقت ، ثم تسامت
فى جو السماء ، واغرودتها تنساب حواليها وتتزايل معها فى
رقة وترنيم ...
رجع «المعلم يونس» الى داره يهرول ، وبين حناياه اهتياج
فما بلغ الباب حتى صاح ينادى زوجه مجلجل الصوت :
« شلبية ... شلبية » ...
وعجلت اليه الزوج ، فبادرها يقول متلاحق الانفاس :
ــ الا تعلمين الخبر ؟
ــ اى خبر ؟
ــ لقد اكلت هى نفسها الفطيرة كلها ...
ــ من يا رجل ؟
ــ هى ... هى ... « العصفورة » ...
فغام وجه المراة ، وقالت لزوجها فى لهجة محزونة :
ــ اى عصفورة يا معلم يونس ؟ ... « العصفورة »
اختارها الله ... عند الله ... الصبر بالله !
فقال لها الرجل فى شيء من الحنق :

ـ اقسم لك على ما اقول ... الا تصدقينني ؟ لقد رايت روحها تطير فوق القبر ، «عصفورة» تتحدث الى، وتانس بى، وتقبل على الفطيرة تاكلها فى تلذذ واستمراء ... انها هى بلاشك ... الست مؤمنة ؟ سبحان الله القدير !

ونظرت الزوجة الى رجلها وقد عرتها دهشة اسلمتها الى الوجوم ، وقالت فى همهمة :

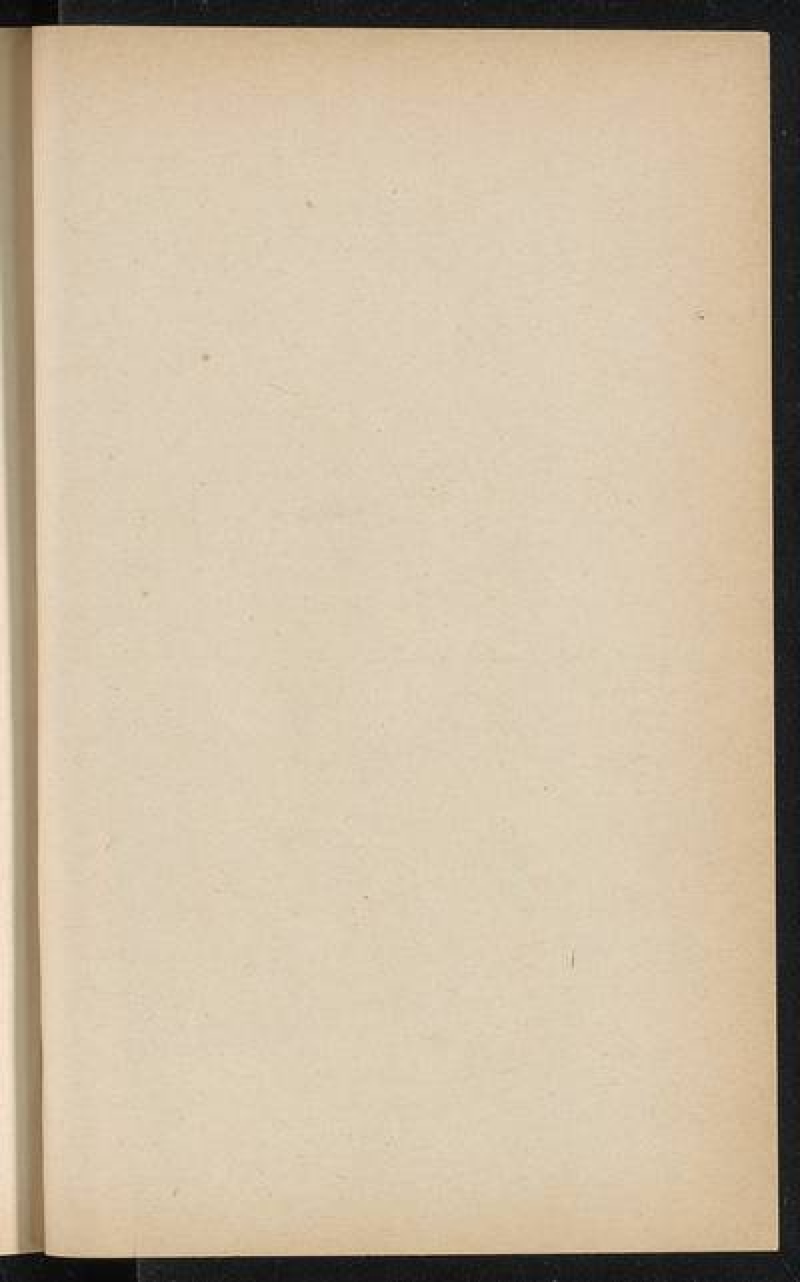
ـ روحها ... « العصفورة » ... تطير فوق القبر ...

وحدقت فيه مستطلعة ، فظل يردد قوله ، ويؤكده جهير الصوت ، ووجهه تفيض عليه غبطة وسماحة وارتياح

ومنذ ذلك اليوم ، داب « المعلم يونس » على ان يشترى الفطيرة المعهودة بعد صلاة « الجمعة » ، وان يذهب بها من ساعته الى المدفن ، لكى يقدمها الى « عصفورته » ...

وعاش بذلك هانىء البال !





أم سحلول

هل يستسلم الانسان لعجزه ؟
انه يحاول ان ينتزع من الضعف
قوة ، ومن الضعة رفعة ، وان
كانت هذه القوة والرفعة فى حياة
اخرى غير حياته ... بل بعد
حياته !

اتراك من رواد المساجد فى يوم الجمعة ، تختلف اليها لاداء الصلاة الجامعة ؟

ها انت ذا قدفرغت من الصلاة ، فتابطت حذاءك ، متهيئا للخروج ، ومثلت بالباب تعالج انتعال الحذاء ، والجمع الدافق حواليك يدعوك الى الاسراع

الم تحس مرة وانت فى هذا الموقف بشيء ياخذ برجلك، يحاول ان يعينك فى عملك ، وهو مكب بطرف ثوبه المهلهل على الحذاء يميط عنه الغبار ، ولسانه يلهج بدعاء فيه ضراعة وتشفع واسترحام ؟

لا عليك ان تعنى نفسك بتفقد هذا الشيء الجاثم عند قدميك ، فهو معهود لديك ، ليس بالغريب عنك ، ولا حيلة لك فى امره الا ان تلقى اليه بقطعة من النقود، وانت تهمهم :

ــ ام سحلول ... دائما انت ؟

فتتقبل المراة منحتك فى بشاشة ، ولا تلبث أن ترفع يديها الى السماء تستمطرها خيرا لك ، وبركة عليك ، ثم تنحرف عنك الى غيرك ، محنية الهامة ، قميئة القامة ، تاخذ بطرف ثوبها المهلهل الى وجهها تمسحه ، ثم تخص به انفها تمخط

« ام سحلول » ... وهل يجهلها من اهل المساجد احد؟ انها هى منذ خمسة وعشرين عاما ، تدرج ذليلة المشية ، مهزولة البنية ، فى اسمال زرق !

لا تراها ابد الا مخفوضة الراس ، كأنها تقتفي مواطئ الاقدام ، او كان بعينها داء لا تستطيع معه ان تواجه الاضواء ، فهي تتحاشاها بالاطراق

لا تسمع منها ابدا الا تلك النغمة الواهنة المستضعفة وهي منكفئة على نعال المصلين ، تستعطف قلوبهم حين تقول :

ــ ارحموا اما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

عرف الناس « ام سحلول » بهذه الميزات الخاصة، واكثر من ضاقوا بها ذرعا هم اولئك السائلون الذين وجدوا فيها منافسا خطيرايزحمهم على الكسب الميسور، فكانوايناوئونها بمختلف الوان المناواة ، يتعمدونها بالضرب الوجيع ويغتصبون منها ما جمعت من عطايا ومنح ، ويصدونها عن السبيل كلما اقبلت على السبيل

بيد أن المراة صابرت ورابطت ، واحتملت ما تلقى من عنت واضطهاد ، وظلت تتنقل على ابواب المساجد ، تتصيد من يصدر عنها من المصلين ، تعينهم على انتعال الاحذية واماطة الغبار عنها ، كانها تهم بتقبيلها تذللا ومسكنة

لم تكن « ام سحلول » محببة الى رفاقها من اهل السؤال والاستجداء ، ولم تكن كذلك في الاحياء التي تلم بها محببة الى الأهلين من عامة الناس ، فهم ينفرون منها ، ويضجرون بها ، ولا تكاد تجد عندهم قبولا ولا حظوة

وكانت « ام سحلول » تعجب من اولئك الذين يفسحون صدورهم للسائلين دونها ، اذ يفوتها ان الاستجداء يجب

ان يحاط بمظهر براق ، حتى يبلغ من النفوس مبلغ الاشفاق فلابد ان يكون صوت الضراعة على ضعفه جهيرا يهز المسامع، ولابد ان يكون للمستجدى من الضمادات والخرق والعكازات ما يسترعى الانظار ... وهذه المراة المسكينة لا تتمتع بشيء من تلك المؤثرات جميعا ، فلا جراح دامية ، ولا قدم متورمة ، ولا عمامة خضراء تناطح الجوزاء ، وليس لها ذلك الصوت الابح المتسلخ يتعالى به حلق صاحبه كانه ثور ذبيح يسلم الروح

لقد عجزت « ام سحلول » عن ان تكون من طائفة المتسولين العتاة ، فما هى بشحاذة توافرت لها ادوات ذلك الفن الاصيل ...

هى آدمية اختارت لها الاقدار ذلك الحظ من التشريد ، وهى تكافح وتنافح لكى تكفل طفلها الوحيد ...

لم تكذب المراة فى دعواها ان لها طفلا يتيما ترعاه ، ولولا هذا الطفل لكان لها مصير غير ذلك المصير ، واغلب الظن انه لولا طفلها هذا لودعت حياتها منذ عهد بعيد ، ولكنها يوم احتضنته وليدا احست شعلة الامومة تتقد بين جنبيها ايما توقد ، فبنت عزمها على ان تحيل تلك المزقة الحية التافهة كائنا له مكانة وخطر

مضت خمسة وعشرون عاما ، والمراة خلالها تلوذ بابواب المساجد والضرائح مستجدية ، وما برح لسانها يتضرع الى المحسنين بتلك الجملة الخالدة التى لا يعتريها التغيير والتبديل :

ــ ارحموا اما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

أترى يلبث ابنها اليتيم طفلا تلحق به صفة الطفولة والي
على مر السنين ، وان جاوزت خمسا وعشرين ؟!
ألم تدرك « أم سحلول » أن طفلها قد كبر وترعرع
حتى صار شابا رائع الشباب ، يسعى فى الحياة سـ
العاملين ؟!

انها لتأبى الا ان تعده ما برح طفلا وان بلغ مبلغ الرج
وان انفصل عنها يكدح ويغامر ، فهو على الرغم من كل شي
ذلك الطفل المستضعف المهيض الجناح ، لا غنية له عن كنف
امه ترعاه وتحدب عليه !

نشأت « أم سحلول » فى كنف رجل جزار يعمل فى المذبح
كأنما صاغته الطبيعة ليمثل طائفته من الجزارين خير تمثيل
قامة فارعة ، والواح عراض ، وشارب غليظ مسنون يقف
عليه الصقر كما يقولون فى الامثال

نشأت هذه المرأة فى كنفه ، وهى صبية لا تعرف
ماضيها اى شيء ، أصابها فى بعض الطريق طفلة لا تك
تبين ، اذ التقطها رأفة بها ومرحمة ، فاليه يرجع الفض
كل الفضل فى بقائها حية كسائر الاحياء

ذلك ما كان يردده الرجل على سمعها صباح مساء ، وه
مزهو يفتل شاربه ، فلا غرو ان تؤمن بما له عليها من من
وان تجزيه على احسانه اليها ولاء موصولا وطاعة عمياء
تخلص له فى الخدمة وان اغلظ لها فى القول ، وتضط
بأعبائه وان قسا عليها فى المعاملة ، وما اكثر ما عانت
عربدته حين يثوب اليها فى جوف الليل ، سكران يترنم ..
على راسها يصب ما فى راسه من نزوات الخمر !

كان مولاها وسيدها هذا لا يفتر عن تذكيرها بما لها من ضآلة وتفاهة ، وهو، الذى دعاها « ام سحلول » قبل أن تبلغ الحلم ، تهاونا بها وسخرية ، فحملت هذه الكنية قبل ان تعرف كنه الامومة ، وتقبلتها دون انفة ولا تذمر،واستقر فى اعماق نفسها انها كما ينعتها مولاها وكما ينعتها سائر الناس من حولها احقر مخلوقات الله جميعـــا وابشعهن صورة . . .

وانساقت الاعوام بتلك الصبية ، حتى جاوزت السادسة عشرة ، وهى على حالها مخلوقة لا تحنو عليها الطبيعة بشىء من فتنة الانثى ، ولا حظ لها من العيش الا هذا اللون الدائب من المهانة والمقت والاذلال

ويوما الفت نفسها شريد طريق ، لا عائل لها ولا ماوى اين سيدها ومولاها ؟ لم تدر من شانه الا قول الشرطى لها :

ـ انه لن يعود !

وصافحت سمعها اقاويل عن سيدها ، يتناقل الناس فيها حديث القاتل الذى ينتظر مصيره المحتوم ، مشنقة الاعدام !

فارتاعت لما تسمع ، ولكنها لم تستجل الامر على حقيقته . . . وعلى مالوف عادتها اذعنت لما تواجهها به الايام من احداث

لم تملك « ام ســحلول » الا ان تودع ذلك الحى الذى عاشت فيه ردحا من الزمن ، وتركت نفسها نهبا لغمرات الحياة ، خائرة القوى ، مشدوهة حيرى ، لا تعرف كيف

تنقل خطاها ، واوشكت ان تهوى بها الغمرات الى القرار . ولكن سرعان ما احست شيئا يختلج فى احشـائها ، كأنه يعلمها بوجوده ، واستبان لها الامر ، وخيل اليها انها تسمع هاتفا رخى الصوت يقول :

ــ لقد جئتك من عالم الظلام المجهول ، فماذا انت صانعة بى ؟

وبغتة شعرت المراة بيقظة تدب فى اوصالها ، فاندفعت تبكى ، ثم انثنت تضحك ، واستبد بها هياج يختلط فيه الضحك بالبكاء

منذ ذلك الحين عرفت « ام سحلول » ان لحياتها شانا اى شان . . .

منذ ذلك الحين ايقنت ذات الجنين انها لم تعد تافهة كما كانت من قبل . . .

انها كسائر الكائنات يجب ان تعيش وان تكدح . . .

لقد اصبحت « اما » ، وحسبها ذلك من دافع وحافز ، وهل تركت الامومة بعدها فخرا تعتز به الانثى ؟

تلك هى « ام سحلول » بحق . . . « أم » فى عالم الكرامة والتقدير والاعتبار ، لا فى عالم الوهم والسخرية والاحتقار!

عرفت المراة طريقها الى المساجد والاضرحة ، هدتها اليها الفطرة الساذجة ، واتيح لها فى ذلك الميدان جانب توفيق ، فحمدت لله ما افاء عليها من نعمة طيبة ، وثابرت على خطتها فى نشاط وحمية ، حتى استطاعت ان تؤسس لها ماوى فى زقاق من ازقة « التربيعة » : حجرة ضيقة مستهدمة ، لا يهتدى اليها ضـوء الشمس فى شتاء أو صيف

وما احتياج المراة الى الضوء حين تئوب الى ماواها المختار؟
انها لتلبث عامة يومها تذرع الطرقات ، وتتردد على أبواب المساجد والضرائح ، تلوك فى فمها المضغة المعهودة لكل من تلقاه :
ـ ارحموا اما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !
فلا يكاد يدبر اليوم حتى تكون المراة قد اثقلها التعب ، واعياها الطواف ، فهى تانس فى حجرتها الضيقة بذلك الظلام الذى يهدى الى جسدها الراحة والدعة ويسبغ على نفسها السكينة والهدوء
فى هذا الماوى وضعت « ام سحلول » وليدها المرتقب ، وبين جدرانه كان منشؤه ومرباه ، ومنه خرج سليل الظلام يستقبل نور الحياة فى دنيا الامل والعمل والكفاح
وحرصت تلك الشريدة الطريدة ، ربيبة المهانة والباساء، على ان تحوط ذلك الوليد النابت بالرعاية ، وان تحميه من عوامل البؤس والتشريد ، وان تحيله كائنا له فى الدنيا مكانة وخطر ، على نحو ما كانت تبغى ان يكون !
لطالما اخذت « ام سحلول » طفلها بين يديها ترقصه فى تلك الحجرة المعتمة على بصيص من ذبالة المصباح الاعفروهى تناجيه بقولها :
ـ لتغدون اعظم من ابيك ... وليكونن لك شان !
ثم تضمه الى صدرها فى شغف، وفمها على فمه ملتحمان فى قبلات يسيل منها دمعها الحنون
وكلما وقع بصرها على رجل مهيب الطلعة ، وجيه الشارة ، ناجت نفسها تقول :

– لماذا لا يكون ابنى مثل هذا الرجل ؟ . . . فليحرسه الله !

فان مرت بدار انيقة المظهر ، رفيعة الطباق ، شخصت اليها تقول :

– لماذا لا يسكن ابنى مثل تلك الدار ؟ . . . فليحرسه الله !

وان جازت بها سيارة فارهة المنظر ، لامعة الطلاء اتبعتها نظرها تقول :

– ليكونن لابنى سيارة كهذه السيارة . . . فليحرسه الله !

واستمرت المراة تعمل ، ناشطة السعى ، تزداد من تشبث بالحياة ، وتضطلع بما تجابهها به أعباء العيش ، من اجل طفلها المرموق . . . تحرم نفسها القوت لتطعمه من الطيبات ، وتقنع من الكسوة بالمرقعات لتكسوه المستجاد من الثياب ، ولا تفتر عن تنظيفه وملاحظة هندامه على حين تبدو هى فى اوضار واقذار

وما ان استطاع الغلام ان يفهم عنها حتى كان اكثر حديثها معه نصحها له بان يكون مهذب النفس ، موفور الكرامة ، رفيع المقام . . . تكرر ذلك على سمعه قبل أن تنصرف عنه مصبحة ، وبعد أن تعود اليه ممسية ، وهى فيما بين ذلك غارقة فى الاذلال والامتهان ، تريق ماء وجهها طول النهار بالاستجداء ، وتنمى ثروتها على الايام بما تدخر من عطايا الكرام

ترعرع الغلام ، وايفع ، وضمته معاهد التعليم ، وتلقى فيها ضروب المعرفة ، فاقبل على درسه ماضى الهمة ، مرهف

الفطنة ، تلهب امه من عزمه ، وتبصره بأن الحياة صلابة وجد ، وان النجاح سبيله الاستماتة فى الكفاح

ولما شب الفتى عن الطوق ، افردته « ام سحلول » فى حجرة لائقة به ، واختارت له هذه الحجرة فى بيت حديث البناء يقوم على ناصية « الشارع الكبير » كما كانت تسميه ... اما هى فاستبقت ذلك الجحر المعتم تحيا فيه حياتها الراتبة

وكانت تؤم حجرة ابنها تقوم فيها بالخدمة ، فتغسل الثياب ، وتنظف الاثاث ، وتطهو الطعام ... فان اضطرت ان تتحدث الى بعض الجيرة اوهمتهم انها كانت على صلة باسرة الفتى ، وانها تعلقت به ، واخلصت له ، وستبقى على العهد تخدمه

واحيانا يسألها الفتى :

ـ لماذا لا تقيمين معى يا اماه ؟

فتخفض « ام سحلول » بصرها ، وتاخذ بطرف ثوبها تثنيه وتبسطه ثم تجيب :

ـ دعنى وما انا فيه يا بنى ، فان لك شأنا غير شأنى... انا « ام سحلول » .... عرفت حياتى والفتها ... ولن اغيرها ما بقى لى وجود ... اما انت فلك عالمك ومستقبلك، تحيا فيه وتنعم به ، وتتملى ما فيه من سعادة وعزة ورقى ... فليحرسك الله !

ثم تسمو بهامتها اليه ، تستطلع اثر حديثها فى وجهه ، وقد انتفضت نفسها بالحنو ، ونديت عينها بالدموع

وترادفت اعوام ، والمراة تنفق على ولدها فى سخاء ،

وتشرف على تربيته وتخريجه بوحى من بصيرة الام الرءوم

واقتحم الشاب ميدان العمل ، فأسند اليه منصب فى احدى الشركات يدر عليه من الرزق ما يكفل له عيشة راضية ، فانتقل الى شقة فاخرة ، واقتنى سيارة انيقة ، واصطنع الخدم يقومون بشأنه ، وامه على حالها فى جحرها العتيق ، تزهو بسعيها الموفق ، وثمرتها الناضجة ، وتنشد لعزيزها النماء والمزيد

ولقد اقلت من زيارتها له ، حتى لا تثير الشبهات من حوله ، فكانت تحرم نفسها رؤيته ، لكى تجنبه ما يعكر صفوه ويشوب هناءته ...

ولشد ما عالج ابنها أن يجتذبها الى مسكنه ، وان يقرها فيه ، فابت عليه ، واصرت أن تدعه كما هو وحده ، وان تكون هى عنه بمعزل ، لا تبغى بحياتها من بديل

وجعلت المراة تشتد فى جمع المال اكثر مما كانت تفعل ، فهى تعمل جاهدة فى الاستجداء ، حتى يتوافر لها قدر من المال عظيم ترصده لغرض معلوم

حق لابنها أن يتزوج ...

ذلك هو شغلها الشاغل ، وتلك هى امنيتها الغالية ، فلتبذل ما اوتيت من جهد لكى يكتمل لها من المال ما يصلح ان يكون مهر عروس ، وما يتبع ذلك من تكاليف افراح الزفاف

لن يهدا لها بال حتى ينعم ابنها بالزواج ، فتكون له امراة انيسة يرزق منها بالذرية الصالحة ...

لن يطيب لها عيش حتى يهنأ ابنها فى ظل أسرة يحوطها الصفاء والوئام ...

حتم ان يسعد ابنها بكل ما حرمتها الاقدار اياه . . .

ليس ابنها فى الحق الا صورتها الاصيلة ، بل هو جوهرها الخالص ، بل انه هى نفسها لا ريب فى ذلك ولا نزاع . . .

فكل ما يستشعره هو من رفاهة ونعيم تحسه هى كاملا غير منقوص

انها لتاكل طعامه وتستمرئه، وان لم يمس شفتيها مذاقه

انها لتحيا حياته ، تتقلب على وثير فراشه الملون بالوان الزهر والريحان ، وتتنقل فى سيارته ذات البوق الرنان ، وان كانت فى جحرها الخرب ماكثة لا تطأ الشقة الفاخرة الا خلسة تخشى ان تقع عليها العيون ، ولا ترى السيارة الا خطفا حين تنهب الارض فى معاطف الطريق

انها لتحس ما يحس ابنها من عزة وكرامة ، وان ظلت على أبواب المساجد والاضرحة مبسوطة الكف للسؤال ، منحنية على مواطىء الاقدام تمسح النعال

لم تبق لها من متعة فى الحياة تهفو اليها الا ان تشعر بالفرحة الكبرى : « فرحة الزواج »

فليتزوج ابنها عما قليل ، وليكن زواجه فى حفل بهيج ، يجتمع على موائده الكبراء والسراة والحكام ، وتصدح فيه الموسيقى بآلاتها الضخمة وانغامها العذاب ، ويصطف رجال الشرطة بالابواب يرفعون أيديهم بالتحية للقصاد ويهيمنون على النظام !

ليكونن الحفل عظيما تتحدث عنه المدينة باروع ماتتحدث عن الافراح والليالى الملاح !

وتم « لام سحلول » ما كانت تريد

خطب ابنها « بنت الحلال »، فتاة كريمة العرق ، وسرعان

ما ضرب لحفل الزفاف موعد قريب

وحل اليوم العظيم ، ذلك الذى ترتقبه « ام سحلول منذ عهد بعيد ، ولقد اكرمها الله اذ حباها بما كانت تصب اليه ، فما يكون لها بعد ذلك من مطمح فى الحياة

فى هذا اليوم تختتم مرحلة الشقوة والكد والعناء ، لتبد مرحلة جديدة من الطمانينة والهدوء والاستقرار

فى هذا اليوم تكمل رسالتها فى ذلك الوجود ، وتتم انجا واجبها الذى ناطته بها الاقدار

واضطرمت فى نفس المراة حيوية لم تعهدها من قبل واستشعرت قوة واقتدارا لم تعرفهما فى ماضيها الغابر فذلك انقلاب شامل يطرا على تلك النفس المستكنة المتخاضع اللائذة بالصمت والظلام

انها مخلوق جديد لا يمت الى شخصها القديم بنس قريب أو بعيد

لقد اختارت اليوم لنفسها اسما مستحدثا تعرف به « أم البك »

ولقد ارسلت من يشيع فى بيت ابنها أن « ام البك قدمت من الضيعة فى الصعيد الاعلى لتشهد وحيدها العز فى حفل زواجه السعيد

وقضت « أم البك » يومها الاطول تتنقل بين « البلان و « الماشطة » فى الحمام ، وبين أيدى النساء يشرفن ع زينتها وملبسها فى بيت خياطة مشهود لها بالمهارة والات

ولما توارت شمس النهار لتسمح لشموس الحفل المصابيح الكهربية ان تتوهج مختلفة الالوان ، بدت « سحلول » وسط الجمع تتخطر ، تارة تحيى الضيوف

وقار وشموخ ، وتارة تطارحهم الحديث فى انس يمازجه ترفع ، واذا هى تلتفت بغتة ، لتصدر الاوامر فى سطوة واعتزاز ، جهيرة الصوت ، مرفوعة الهامة ، كأنها قائد فيلق فى موقعة فاصلة

لقد ظهرت « ام سحلول » فى حلة قشيبة زاهية. تطول قامتها بما انتعلت من حذاء عالى الكعب أنيق ، ويمتلىء جسدها بما احتشت من اثواب اشتات ، ويعلو صدرها بما ركب فيه من حشيتين ناهدتين ، بدت بهما المراة كأنها عذراء كاعب

ولقد اجادت الماشطة عملها ايما اجادة ، فاخرجت من المراة حسناء مكحولة الجفن ، مزججة الحاجب ، مكسوة الشعربالسواد اللامع، مطليةالوجهباخلاط العبيروالمساحيق، مصبوغة الشفة بالحمرة القانية ، حتى غدت كأنها دمية للزينة زاهية الالوان

ورئيت « ام سحلول » تنساب من بين أناملها العطايا والمنح ، فتتلقفها جوقة الغناء والرقص ، ويتلقطها الخدم والحشم ، وانطلق الهتاف « بأم البك » تتقاذف به الافواه فى حفاوة وتكريم واعجاب ، وانبعثت انظار الجمع تتحلق حول « أم البك » سائرة فى تبختر وخيلاء ، وهم يفسحون لها الطريق ، ويحنون من هاماتهم فى تجلة واكبار

وتصدرت « ام سحلول » مقصف الحفل ، وطفقت توزع بيديها ما لذ من الطعام وما طاب من الشراب، سخية بالاعطاء ، ملحة فيه ، حتى لم تدع احدا الا نولته من فيض خيرها العميم

ثم عدلت عن المقصف تريد الطريق ، والخدم من ورائها

يحملون قصاع الثريد وصحاف الحلوى ، واذا هى تطعم العفاة المزدحمين بباب الدار ، فتعالت أصواتهم يمتدحون « أم البك » ويدعون لها اخلص الدعوات

وانقضت ساعات الليل ، والحفل ساهر فى طرب ومراح لا يخبو له رونق ، و « أم سحلول » تتراءى كأنما هى العروس ، وما زوج ابنهـــا الا احدى الوصائف فى حفل الزفاف

وفى مبرق الفجر تزايلت اضواء المصابيح ، وتخافتت اصوات السمار ، وما هى الا ان اطبق السكون العميق على جوانب الدار

وصعدت « أم سحلول » الى غرفة أعدت لها فى السطح، فتخاذلت أوصالها على فراش وثير ، تسترسل بها الاحلام فى شتى الاجواء

وفى ساعة الظهيرة حين جليت مائدة الغداء ، قصد الى الحجرة رسول يوقظ المراة من النوم ، لتشرك الاسرة فى الطعام ، فالفاها الرسول جثة بلا حراك

وكان اكبر شيء يسترعي النظر فيها ما يتجلى على محياها المشرق من صفاء وراحة واطمئنان ...

لقد نعمت بزبدة الحياة فى ليلة يا لها من ليلة ، فليست هى أهلا بعدها لحياة ...

لم يعد « لام سحلول » مكان فى حياتها السابقة التى كانت تحياها من قبل اذ ادت واجبها فيها كل الاداء، واطمانت نفسها بما انتهت اليه ، وفرغت منه

ولا مكان « لام سحلول » فى تلك الحياة الجديدة التى يستقبلها ابنها العزيز فى ظل زواجه السعيد

انها لتنطلق الآن سابحة فى الآفاق العلوية ، راضيـــة مرضية ، وقد تخلصت من القيود والاثقال !

خائب الدهر

صورة من حياة فئة حسبت نفسها من الخيرة الممتازة . ولكنها لم تعمل فى الحياة ما يحقق هذا الظن ... ربطت نفسها بالماضى ، ولم تسـايـر الزمن ، معتقدة ان الماضى هو عالم الخير المحض. وعاشت على الاوهام فى عالم الاحلام ، ففنيت فيه وزالت من الوجود !

ذلك آخر ايامى لا محالة ... وما احسب ان الشمس طالعة غدا ، ولى فى هذه الحياة انفاس

لم يعد قلبى مستطيعا ان يواصل الخفوق ، واذن فانا من مصيرى العاجل على ثقة لا يتطرق اليها ارتياب

لن يعودنى الطبيب منذ اليوم ، فقد صرفته عنى ، وطلبت اليه الا يعود

ويح هذا الطبيب ، من مخادع كذوب ! ... انه ليموه الحقيقة على ، ويكتم ما يعلم من امرى ، ويتخذ فى تضليله اياى اساليب تستدعى ان ارثى له ، بل انه ليثير فى نفسى ابلغ السخط والحنق

من يظننى هذا الغر المأفون ؟ لكأنه يظننى طفلا يريد ان يغرر به ، ويسخر منه ؟

وما انتفاعى بذلك الطبيب ، وانا اعلم من خبيئة امرى مالا يعلم الف طبيب وطبيب ؟

لقد وهبنى الله بصيرة مرهفة ، لا يسمو اليها علم الاطباء ، وانى بتلك البصيرة لاستجلى ما دق من اسرار الحياة والاحياء

يقينى ان بقائى فى الدنيا قليل ، وان رحيلى عنها وشيك

لا تثريب على اذن فى ان اتخذ من الاهبة ما يتخذ الراحل الى غير مآب ... استصفى ما يتصل بى من عمل ، واستدعى اللحاد لأشير عليه بما ارى فى شان القبر الذى

يحتوينى ، ولم انس ان اوصى بما تكون عليه جنازتى فى
طريقها الى ساحة الصمت والسكون

لقد اطمأن قلبى بما دبرت وما اشرت وما أوصيت ،
وهأنذا أستقبل الموت فى سكينة واستسلام

حان حينى ... تلك ارادة القدر ، ولا مرد لما يريد ،
بيد ان الناس ينكرون هذه الحقيقة الخالدة ، فيزعمون انى
انا الذى ابلغت نفسى هذه الغاية من التداعى والاضمحلال

اولئك هم يقولون انى اسرفت فى التشاؤم الاسراف كله
وانى تركت الهواجس والاوهام تغتالنى وتلقى بى الى
التهلكة

احقا انا كما يزعم الناس ؟

احقا ان هذا التشاؤم كان يهيمن على خطواتى ، فيوجهنى
كيفما شاء ، وانه هو علة اخفاقى فى الحياة ، وهو الذى
ساقنى اخيرا الى هذا المصير الذى انا فيه ، أعد مابقى لى
من حياتى بالساعات ، بل اللحظات ؟

احقا انى من هذا الضرب الذى يخط بيده مصيره
ويخطو بقدمه الى حتفه ؟

احقا انى اسير هواجس اخلقها فى مخيلتى ، لأعكر بها
صفو أيامى ، وانى أتصيد الاوهام فابعثرها لتتعثر بها
خطاى ؟

احقا انه كان فى مقدورى ان امد لنفسى عمرا اطول مدى
وان اهيىء لى حياة اوفر جدوى ؟

تلك مزاعم الناس ومفترياتهم على ، ولعمرى أنهم لظالمون
لى ، وانهم فى هذا الظلم لآثمون !

كيف يتاح لامرىء ان يزيد فى عمره المقسوم له يوما او بعض يوم ؟ السنا طوع اقدار لا نملك منها الفرار ؟ واين تلك الارادة التى تسمو الى تبديل ما رسمت لنا الاقدار ؟

ما زال الناس لهم السنة اطول من عقولهم ، فهم لايفتأون يلقون الكلام جزافا عليه مسحة من برقشة وزخرف ، وهو كالطبل الاجوف الرنان ، فليس فيه من معنى الا كذلك الهواء الذى يخرج من الطبل اذا مزقته ، لا يلبث أن يذهب مع الريح

ما للناس وما لى ؟

فليدعونى لما بى !

ولكن انى للناس ان يتركونى ، ودابهم منذ كانوا ان يقحم كل منهم نفسه فى حياة غيره ، فيفسد عليه امره ، يدعى انه يفهم من الدقائق والاسرار مالا يفهم سواه ، وانه وحده مالك ناصية الهداية والاصلاح ، وهو لذلك يتطوع باللوم ، ويتبرع بالنصح ، متخذا من هذا كله ذريعة الى استبطان دخائل الناس ، والتغلغل فيما يضمرون من شئون وشجون

لو عرف المرء قدر نفسه ، لاختزن نصائحه لنفسه ، وكف عن التدخل فيما لا يعنيه ... اذن لخلص الناس لانفسهم يدبرون امورهم بمنجاة من التطفل والتدخل والتأثير ، ولعاشوا فى سكينة وطمأنينة ونعيم

أين هى الوساوس والاوهام التى يزعمون انها تملك على سبيلى ، وتأخذ بخناقى ؟

انها حقائق ملموسة ، لا يتسرب اليها الشك من قريب

او بعيد ، حقائق ناطقة لا يجحدها الا مكابر عنيد

تلك هي القهوة امام عينى ... ذلك المشرب الذي يقوم بناؤه عن كثب من المنزل ، متجليا للناظر تحت الاضواء باركانه وابوابه واشيائه ...

احقيقة هي القهوة ام وهم يصوغه الخيال ؟

انت تسالنى : وما الصلة بينى وبين القهوة التى هى مالئة للعيون ؟

لا تعجل بسؤالك على ، فانى مجاهرك بكل ما تريد

ليس من عجب فى ان تكون بينى وبين القهـــوة رابطة وصلة ، فذلك امر لا تاباه الطبيعة ، وان بدا غير مالوف

ثمة كائنات يرتبط بعضـــها ببعض أوثق ارتباط ...

رب شيئين اتصل احـــدهما بالآخر ، فكانهما توامان متلاصقان ، لا يفترقان فى ابتداء او انتهاء ... همايزدهران معا ، ثم يضمحلان معا ، فاذا فنى احدهما فنى الآخر على الاثر ... بينهما وصلة روحية يعقدها القدر ، فاذا هما يجريان فى آن واحد الى غاية واحدة

لا سبيل الى اكتناه الصلة الروحيـــة بين الكائنات المترابطة ، فان كنهها محجوب يعز على عقول البشر ، وما اعجز افهامنا عن ان تدرك اسرار الروح ، بل ما اشد قصور الافهام البشرية عن ادراك الكثير من خفايا الطبيعة وسرائر الكون

وماذا يبلغ علمنا بتلك السرائر والخفايا ؟

هذا المخلوق البشرى اجهل مخلوقات الله بما حوله من طبائع الاشياء وحقائق الوجود ، ولكن له لسانا طويلا يعينه

على التبجح والادعاء ، وانه لفخور بهذا اللسان الذى يشقيه ويطيل همه ، ولو انصف هذا المخلوق التاعس لاستاصل لسانه من حلقومه ، ولعاش اخرس يختزن رايه وتفكيره فى وليجة نفسه ، فيريح ويستريح ، ويسلم من اعقاب تلك الثرثرة الأرضية التى تجلب عليه الهزؤ والسخرية من جانب السماء . ولكأنى بالكائنات العليا تستمع الى هذيان ذلك الانسان الاحمق ، فتسترسل فى قهقهة تملأ الفضاء من بروق ورعود

اقولها جهرة لا لبس فيها ولا ارتياب ... ثمة رابطة روحية قوية وصلت بينى وبين هذه القهوة التى اسميها توام نفسى ، وصنو عمرى ، فوحدت ما هو مقسوم لنا من مصير

يطيب لبعض رفقائى ان يعابثونى فيسالونى : اذا اجزنا لك ان تستوثق الصلات بين الكائنات الحية ، وان يتحدمالها من اقدار ، فكيف نجيز لك ما تزعم من الاتصال بين كائنين: حى وغير حى ، بينك وبين القهوة ؟ ... انت انسان والقهوة جماد ، فاين روحها التى تزعم اتصالها بروحك ؟

ما ابين جهل السائلين باسرار المادة الازلية !

انهم ليقفون عند الظواهر والقشور ، وانهم ليقيسون الحياة باقيسة جامدة قاصرة ، لا تلائم ما يحيط بنا من عناصر الكون وجوهر الوجود ... الا ان كل شيء فى هذا العالم حى ، وان اختلفت صور الحياة ، وهل عرفنا نحن حقا ما الحياة ؟ ما كنهها ؟ ما تحديدها ؟ ما تعريفها على الوجه

الصحيح ؟ وهل وقفنا على حقيقة الروح التى تعمر الجسد، فتخلع عليه صبغة الحياة ؟ أليس ذلك كله ما برح الى اليوم وراء الغيب المستور تتيه فيه الأوهام ؟

كيف لا يكون كل شيء حيا ، وفى كل شيء نفحة من الله يكمن فيها سره العظيم ؟

انى لزعيم بأن هذه الأشياء التى نسميها الجمادات تنعم بحياة عامرة كما تنعم الكائنات الحية سواء بسواء ، فلكل من تلك الجمادات حياته الحافلة بالاعاجيب من طفولة ساذجة، الى شباب متوثب ، الى شيخوخة متداعية ، الى فناء فى عباب الكون الغـــامر ... وانى لزعيم بأن لكل من هذه الأشياء اقدارا وتصاريف من هبوط وصعود ، ومن نحوس وسعود ... ولو ارهفنا مشاعرنا لاحسسنا حياة هذه الكائنات من حولنا ، وتأثرها بنا ، وتأثيرها فينا ، ومشاركتها لنا ، وان كان يعوزها ما تميزنا به نحن من المنطق والكلام ، ولعل صمتها وسكونها افصح من كل منطق وابلغ من كل كلام

لست وحدى صاحب هذا الراى ، فليس منا الا من يؤمن به فى قلبه ، وان انكره بلسانه

اناشدك الحق ان تعترف انت بما تعرف من امرك

اهمس لى بما فى نفسك : الم تستشعر يوما رباطا يصل بينك وبين شيء من هذا الذى ندعوه الجماد ؟

اذكر أن كنت ناسيا : الم تصاحبك طرفة من متاع بيتك، او اداة مما تتخذ فى عملك ، او شيء مما تلبسه او تتزين به ، من نحو زهرية أو دواة او رباط رقبة ، فاذا ما ادركها

البلى ، ولم تجد بدا من ان تلقيها عنك ، او تستبدل بها غيرها ، احسست فى قرارة نفسك احساس من يودع رفيقا كريما ازمع الرحيل عنه ، ونزعت بك نازعة رقيقةمن حسرة واسف ؟

ذلك القلم الرصاص الذى اصطنعه للكتابة ، فأصاحبه وقتا يقصر أو يطول ، انما هو رفيق عزيز تتصل حياتى بحياته ، وتندمج روحى فى روحه ، فتتخلق هذه الأفكار التى يخطها بدمه على القرطاس ، فاذا هى شىء حى له كيان ... وكلما بريت هذا القلم مرة ، ليهبنى لبابه ، فكأننى اقتطع من حياته ، وانتقص من عمره ، وما انا فى هذا بجان عليه ، ولا آثم فى حقه ، فذلك ما هيأته له الأقدار من تدبير ... كلانا يعيش الى حين ، وكلانا يفنى فى ميقات معلوم ... فلهذا القلم من الدنيا ايام مقسومة لا يستطيع أن يستقدم ساعة او يستاخر ، وما انا فى موقفى منه وصنيعى معه الا يد القدر الخفى تعمل على اسلامه الى مصيره المحتوم

شد ما انا شيق الى معرفة اليد المجهولة التى وكلت اليها الاقدار ان تدفع بى فى غمرات هـذا العيش ، وأن تقتطع من حياتى جزءا بعد جزء ، وتنتقص من عمرى شيئا بعد شىء ، حتى تسلمنى الى النهاية التى ليس من بلوغها بد

- لا غرو ان احس لتلك القهوة التى اطل عليها وجودا وحياة ، وان استشعر ما بينى وبينها من رباط روحى وثيق

لست انسى ما تحدث به ابى فى شأن تلك القهوة ، وانا

يومئذ فى بواكير الصبا ، اذ كان يقول لى رزين اللهجة : انك يا بنى ولدت يوم ولدت هذه القهوة ، يوم فتحت ابوابها للرواد ، يوم استقبلت صخب الحياة . . . وانه فى هذا اليوم اقيم مهرجانان فريدان ، احدهما فى البيت لمولدك ،والآخر فى الشارع لمولد القهوة ، فتواصلت الزينات ، وتعانقت المصابيح ، وتجاوبت اصداء الالحان ، وترنح الشارع كله بنشوة النور والطرب والابتهاج

وهل انسى ذلك الحادث الذى وقع يوم قضت امى نحبها، وانا ابن اعوام قصار ؟ لقد اصاب احد اركان القهوة صدع شديد ، وكاد ينهار على الرواد ، فعجلوا اليه يقيمونه،وكان ذلك اول ما اشعرنى أن ثمة روحا سارية بيننا وبين هذه القهوة ، والا فما بال هذا الركن ينقض يوم ماتت امى ، كانما هما على موعد للفناء

كنت ارى ابى يلازم هذه القهوة ، فهو بالجلوس فيها شديد الولع ، حتى اذاعاد الينا فى البيت،سمعنا منه بعض ما دار فى القهوة من نوادر واحداث ، يفيض فى الحديث عن جلسائه ، وعن ذلك النادل الذى يترسل فى ارجاء القهوة بالوان الأشربة والطلبات فى همة ونشاط ، فاصغى الى حديث ابى فى شغف وتشوق ، كانما انا اصغى الى روائع من القصص والاساطير

واصبحت على مر الأيام من رواد القهوة ، اسمع وارى ، وان لم اخط فيها خطوة ، اذ المت بكل ما يدور فيها من شئون ، وما يختلف اليها من ناس ، فلم يكن يعيينى ان اتخيلها وانا فى مكانى من البيت ، فاحس بانى قد اقتعدت

فيها كرسى ابى على حاشية الطريق ، وانى أترشف القهوة او الشاى ، واجتذب انفــاس « النارجيلة » من انبوبها الثعبانى المديد

هكذا عرفت القهوة قبل أن تعرفنى ، وعشت فيها دون أن تطأها قدماى ، فاكننت لها بين الجــوانح أعظم الحب ، واستشعرت لها فى نفسى سارية من الامن والانس والارتياح

ولما فارقت عهد الطفولة ، واستطعت ان ابارح الدار وحدى ، كان من همى أن استبين القهوة التى ملأت على خيالى ، وجعلت ارقبها هنيهة فى تشوف ، فلم أجد كبير فرق بين ما رايته منها راى العين ، وما كنت أرسم لها من صورة فى الخاطر

ولبثت حينا لا علاقة بينى وبين القهوة الا علاقة عاشق يقنع من عشيقته بنظرات يتبادلانها على البعد ، فيناجيها وتناجيه ، ولقد كنت احس كان هذا البناء يهش لى ، ويرحب بى ، بل كأنه يعتب على فى احجامى عنه ، وتقصيرى فيما يجب له

والحقنى ابى باحدى مدارس الحى ، وكانت القهوة فى طريق المدرسة ، فكنت أجوز بها ذهابا وجيئة ، اردد فيها ناظرى ، واجد لذلك انسا ومتعة

ويوما وانا فى طريقى من المدرسة الى البيت ، الفيت ابى فى القهوة يتخذ مجلسه ، فركضت اليه ، فأجلسنى بجواره وربت كتفى ، وجاء النادل بشاربه المنتفش ، وميدعته البيضاء تكسو صدره ، فما اسرع أن عرفته . وطلب اليه ابى

ان يحضر لى كوبا من شراب الليمون ، فاحتسيته سائغا لم اشرب اطيب منه مذاقا ولا احلى

وتعودت بعد ذلك ان اختلف الى القهوة ، اشارك ابى بعض جلساته ، فتم التعارف فيها بينى وبين صاحبها ومن يجتمعون الى ابى من الرفاق والانداد

وكانت القهوة ملتقى الصفوة والسراة فى ذلك الحى ، عليها مهابة تحميها من ابتذال الواردين ممن هب ودب ، ولم يكن فى الحى سواها من الاندية ، الا تلك المشارب التى توصف بانها مشارب بلدية ، يؤمها اخلاط من الناس

توافرت لتلك القهوة حقا أسباب الفخامة ، جوانبها فسا[ح] وضوءها ساطع ، وأثاثها فاخر ، وادواتها من نوع رفيع ، وامامها ساحة رحيبة يصول فيها الهواء ويجول ... فاذا جاء الصيف ، طاب فيها سمر العشى ، فرايت المناضد قد صفت دون الأبواب على جانب الطريق ، وغصت بها الساحة الرحيبة او تكاد

يا له من منظر بهيج يتدفق من حيوية ومرح ، حين يتحلق الرواد حول هذه المناضد فى الأماسى ، كأنهم خلايا النحل ، وقد تناثرت فوق رءوسهم المصابيح الوهاجة ، والحاكى يبعث اليهم الحان الغناء ، وطوائف الباعة يجوسون خلال الصفوف ليعرضوا الوان السلع ، والمهرجون يبدون الاعيبهم على دقات الطبـــول وانغام الربابات ، والحوا[ة] باعاجيبهم وطرائفهم يسترعون الأنظار ، والسابلة يتقاطرون للتفرج ، فكان القهوة فى زينتها وزخرفها حفلة عرس لاتنتهى

فى ليلة او بضع ليال ، وانما هى مهرجان يتجدد فى كل ليلة، وتتعدد فيه افانين المباهج والمسرات

وكانت اسرتنا فى عهد صباى ترتع فى بحبوحة من العيش فهذا ابى يمارس التجارة فى توفيق واقبال ، لا تنبو له همة ، ولا يكل من السعى ، وبذلك استطاعت الأسرة فى هذا الحى أن تبارى كرائم الاسر فى بسطة الجاه ، وان تظفر من الجيرة بالموفور من الاكبار والاعزاز

شرع الحى بعد ذلك يستقبل موجة طارئة من التغيير والتبديل ، فرايت بعض المنازل المتواضعة المحيطة بالقهوة تسرع اليها يد الهدم ، وما هى الا ان تقوم مكانها ابنية سامقة ، وتقلصت الساحة الرحيبة حيال القهوة ، اذ شيدت فى أرجائها دور جديدة ، وكان المبنى الذى يقوم فوق القهوة قليل الطبقات ، يشغل صاحب القهوة شقة فيه ، فلما تعالت عليه الدور حواليه فقد روعته ، وبدا كأنه قزم هزيل بين العماليق

واصابت ابى وعكة الزمته فراشه ، واوضح له الاطباء أن المرض فى القلب ، ونصحوا له الا يبذل من جهد ، فتخلف عن متجره ، ولم يكن فى مستطاعى ان اخلفه على المتجر ، اذ كنت قد التحقت باحدى الوظائف الحكومية ، فانقطع عن الاسرة رزق كبير ، واضطرت ان تجانب ما الفت من ترف وان تأخذ باسباب الاقتصاد فى الانفاق

واشتدت العلة بأبى ، فكان لا يبارح البيت الى القهوة الا فى الحين بعد الحين ، فآثرت ان أرعى فيها مكانه،وحرصت

على ان اشغله ، وان اعتز به ، حتى احتفظ لابى بمقعده الوثير

وفوجئت صباح يوم بأنى منقول الى أحد بلدان الصعيد، ولم أجد من يعيننى على الغاء هذا النقل ، فاستجبت له ، وقضيت فى الصعيد بضعة اشهر عانيت فيها اليم العذاب، فانا هنالك وحيد لا اعرف لى من صاحب ولا خدين ، والبلد قصى معزول عن العالم الصاخب كانى فيه حبيس ، وكان حنينى الى « القاهرة » يزداد بى يوما بعد يوم ، ولا يبرح مخيلتى ذلك الحى الحبيب الذى نشات فيه ، وتلك القهوة الأنيسة التى تزينه

وكان يغرينى بالبقاء فى هذا البلد أنى فيه رئيس لاسلطان لاحد على ، وان عملى فيه سبيل الى رقى سريع ، ولكن ضيقى بالوحدة ، وحنينى الى المدينة ، شوه فى عينى كل هذا الاغراء

وعرفنى فى تلك الفترة عميد اسرة ميسورة فى ذلك البلد، فرشحنى وسطاء الخير من جانبه أن اكون لابنته زوجا ، وأن يشركنى فى أعماله الكبيرة التى تدر عليه وافر المال . فلم اكترث لذلك كله ، وكيف لى ان اقيم فى هذا المنفى الموحش ؟ واذا كنت أوثر الخروج من الوظيفة الحكومية ، لاقتحام الاعمال الحرة ، فماذا يحوجنى الى الناس ، وذلك متجر ابى فى « القاهرة » ينادينى ان اقوم عليه ؟

ويوما تلقيت برقية تنبئنى بأن والدى على شفا خطر ، فتملكنى روع ، وهرعت من فورى الى القطار ، وما كدت أبلغ عتبة البيت حتى علمت ان ابى قد فارق الدنيا منذ

قليل ، فهالتنى الفاجعة ، ولكن مراسم الجنازة واقامةالمآتم ارادتنى على ان اتجلد ، وان اضطلع بالامر كما ينبغى ان يكون

وحانت منى وانا فى غمرة هذا الحادث نظرة الى القهوة، فاذا هى مغلقة ، فتساءلت ، ما سر هذا الاغلاق ؟ فاعلمونى ان تنظيم العاصمة اقتضى شق شارع فى الحى ينتقص جانبا من مبنى القهوة ، وانه قد حان يوم التنفيذ ، فاحسست حيرة تستبد بى ... يالمصاب القهوة فى يوم المصاب بابى !

وفى غد سمعت صوت المعول ينقض على جانب المبنى ، فكانما كان يدق راسى ، وكانما كان صوته نواحا مع النائحات على فقيد الأسرة العزيز

واسرع صاحب القهوة اليها يلم شعثها ، ويرم جوانبها ولكنها اصبحت بعد ذلك الترميم والاصلاح كئيبة الشكل، شائهة المنظر ، كانما هى كسير بترت ساقاه ، فهو يسير متجهم الوجه ، متغضن الجبين ، يتحامل على عكازين من جذوع النخيل !

تعذر على ان اعود الى عملى فى الصعيد ، فكتبت الى الوزارة ارغب اليها فى نقلى الى «القـــاهرة» ، فلما لم تجب سؤلى قدمت اليها استقالتى ، ايثارا منى للعمل الحر فى متجر ابى

اترانى اخطات فى هذا الصنيع ؟ لقد لامنى فيه كثير من الرفاق ، وحاول ان يثنينى عنه بعض ذوى القربى . ولكنى آنست الرشد فيما انا معتزم ، فلم اعبأ بملام ، واصممت اذنى دون من يحاول تثبيط عزمى

لقد آن لى أن انفذ ما تهفو اليه نفسى من برامج وخطط
اجدد ذكرى ابى فى التجارة ، واحيا فى الأسرة حياته ، واتو
فى القهوة مقامه . . . لأحتذين مثاله ، فكأنه ــ بى ــ حى
يعصف به عاصف المنون

بيد انى لم اوفق فى تحقيق تلك الامانى الرطاب . .
فالمتجر على درجة من التدهور بالغة ، ولم املك ان ا
من عثرته ، وان استنقذه من يد الخسار . . . وكان
الحيلة الاخيرة فى شأنه ان أبيعه لقاء عوض من المال
بأس به

ونصح لى الناصحون بالسعى الى استعادة وظيفتى
الحكومة ، فانتصحت وسعيت ، ولكن المسعى لم يثمر

وقد زاولت أشتاتا من الاعمال ، بغية الاطمئنان الى ع
راتب فيه قرار ، فوقف النحس لى من حيثما اتلفت ، ح
رضيت من الغنيمة بالاياب

ولم اجد بدا من أن أهادن السعى ، واسكن بعض
قانعا بصبابة من المال اقتضيها كل شهر من حصة فى
كانت لامى ، فآلت الى

وهكذا فقدت ما كنت آمله . . . الا ذلك الركن الحبيب
فى القهوة الانيسة ، ركن ابى من قبل ، فهو المفزع والملاذ
فيه اقضى جل الوقت ، محتلا ذلك المقعد العظيم الذى
على الايام بعض ما كان له من صلابة وقوة ، ومن
وجلال . . . وكيف لا يصيب التغير هذا المقعد وقد
فى القهوة كل شىء ، فهذه « النارجيلة » قد صدىء
الصقيل ، وبلى انبوبها الطويل ، وذلك النادل قد

ظهره ، وشاب راسه وبدت ميدعته على صدره كأنها رقعة فى ثوبه لا نظيفة ولا انيقة
على أن القهوة ظلت على حالها مجمع النخبة من أهل الحى ، اولئك الرواد القدماء ، ولكن معظمهم لم يستعصموا على الكبر ، فاذا هم مضمحلون قد تبدلوا من نشاطهم رزانة، ومن مرحهم وقارا وحشمة ، ومن جاههم خمولا وتخلفا ، ومن ثروتهم قناعة ورضا
وعز على القهوة ان تستجلب جديدا من الرواد ، فقد اصبحت حبيسة محدودة النطاق بين الابنية الرفيعة ، لا تكاد تنالها الأبصار
وكنت احاول فى مجلسى من القهوة أن اسرى عن نفسى ما وسعتنى التسرية ، اترشف الشاى ، واجتذب انفاس « النارجيلة » وادفع تلك الافكار السود التى تطوف بى بين الفينة والفينة ، مؤكدا لنفسى ان كل شيء طيب ، وان القناعة كنز لا يفنى ... !
وكثيرا ما كنت استسلم ـ على الرغم منى ـ لما ينتابنى من هواجس ووساوس ، فاحس بقلبى يذوب من لوعة يواسى ... تلك هى أسرتنا العريقة المجيدة ، يصيبها التضعضع ، ويخمل ذكرها فى الحى ، وهانذا اندم على ان افلت من يدى تلك الزوجية الطيبة التى عرضت على فى الصعيد ، وعلى انى اضعت عملى الحكومى الذى كان يكفل لى رقيا على الايام
أما ان اتزوج اليوم فهذا مالا يكون ... وكيف لى بالزواج وانا اكابد مطالب الحياة ، ولا أجد من فضل المال ما يقوم بجديد من التكاليف والنفقات ؟

وهذه القهوة التى بقيت لى ... ان حالها ليبلغ
السوء مثل ما اعانيه ، كلانا كئيب يزداد على الزمن من تناقص
وانهيار ، ولا يعرف له من قرار

ما اقسى هذه الخواطر التى كانت تزدحم على راسى
فى القهوة وحيد ، فاذا اقبل اصدقاء القهوة الاوفياء
ساعة الاصيل ، رايتهم على شاكلتى يشكون كما اشكو
وان لم تنبس افواههم بكلام

اولئك الذين كانوا بالامس يتباهون بالصحة والشباب
والاقبال ، لا اجد اليـــوم منهم الا منهوكا عجلت اليـ
الشيخوخة ، او زعزعه المرض ، او تثاقلت عليـــه هم
العيش . ليس منهم أحد الا وقد عبثت به خائنة الزمن
واحدثت فيه ماتما بعد عرس

كنا جميعا نجلس متقاربين حول المناضد ، نتذاكر
الصفو والهناء من حياتنا الخالية ، اذ كانت القهوة تتبرج
لقصادها ، وتعج بروادها ، كانها غانية فى فتنة الشباب
وجدة الاهاب

يا لى من هذه الذكريات التى تتوارد على الآن ، وانا
فراشى مسجى ، ارتقب الحين المقدور

انها ذكريات تأخذ على مسارب الانفاس ، وكانما
تنفث سمومها فى مهجتى ، فتكاد تعوق قلبى عن
الخفوق

رويدك أيها القلب الملتاع ...

امهلنى دقائق حتى اتجرع بضع نقط من دواء ، نب
لك انعاش

ها قد تناولت الدواء ، وان قلبى ليعاود نبضاتهفىانتظام،
انى لاستشعر هداة وسكينة ، وما احسبهاالا بوادرالراحة
كبرى ، راحة الصمت الى الابد
غدا يطبق الظلام على كيانى وعلى القهوة جميعا
غدا يهبط كلانا فى الهوة السحيقة التى لا مفلت منها
كائن وان تراخت به الايام
لزمت الدار منذ فترة لا ابرحها فى صبح او مساء ،
ولست فى هذا بعابث ، فانا لاشـك مريض ، وان مرضى
يضطرنى الى هذا الاعتكاف
لقد حرمت نفسى الذهاب الى ركنى الحبيب من القهوة
لانيسة ، فانظر ماذا أعانى من وحشة وانقباض ؟!
شد ما هى عصيبة تلك الاوقات التى اقضيها فى الدار
وحدى ، ازجى ما بقى لى من ساعات فىهذهالحياة ، واعدها
ساعة بعد ساعة
هانذا اتوارى عن انظار الخلق اجمعين ، واسدل على
عينى ستارا كثيفا يحجب عنى كل شىء فى تلك الدنيـا
الخداعة الغرور
لا اريد ان تكون لى صلة بمجتمع الناس
لا اريد ان تتناهى الى سمعى تلك الانباء المفزعة التى
يتناقلونها فى شان القهوة ، اذ يقولون انها على وشـك
الانقاض ، وان كنت على الرغم من ذلك اشـد ما اكون
تشوفا الى سماع هذه الانباء ، كما يتشوف السجين اليائس
الى سماع الحكم عليه ، وان كان الحكم بالاعدام
أيتها القهوة العزيزة ... انى لاحبك وارهبك فى آن

لكأن فيك روحا خفيا يعمل على ان يبيدنى ويدنى من
الفناء كيانى

ليس عليك فى ذلك ملام ، فكل شىء فى هذا الكون يحمل
رسالته من خير او شر ، ويؤديها بالطوع او بالكره ، ثم يأوى
الى غيابة النسيان كأن لم يكن بالامس

لا ، ايتها القهـــوة العزيزة ... لا اريد ان اسمع من
اخبارك شيئا بعد اليوم ، وكفى ما قاسيته من هذه الاخبار

لقد اصابتنى اول نوبة قلبية يوم علمت نبأ الحجز على
متاعك ، وفاء للدين الذى تراكم على كاهلك ، ومنذ ذلك
اليوم وانا طريح فراشى لا اغادر الدار

واليوم اعلم ان موعد البيع صبيحة غد ، وان المبنى كله
سيهدم عما قليل ، ليقوم على ارضه بناء يطاول السحاب
جديد

واحر قلباه ... كيف تتابعت الاحداث على هذا النحو
حتى اسلمتنا الى ذلك المصير ؟

هذه القهوة استطاعت ان تغالب ما صادفها من رزايا
ومحن ، فاجتازت سنوات الحرب فى صـــبر واحتمال
وسلمت لنا تواتينا بالسلوة والمتعة والايناس ، حتى ظننا
ان الدهر قد هادننا فى شأنها ، وانه سيبقى علينا وعليها
فما لهذا الامل الذى داعب نفوسنا تقضى عليه تلك الفئة
الناجمة التى اطلقوا عليها لقب : « اغنياء الحرب » ؟!

لقد ظهر بيننا فجأة هؤلاء الاغفال المتبجحون ، فعكروا
صفو هذه البيئة الطيبة الهادئة ، وانبعثوا يقلبون الاوضاع
ويسلبوننا اعز ما نملك بما توافر لهم من اموال غزار

لكانهم غزاة واغلون ، يزحموننا على الامكنة الرفيعة فى المجتمع ، فيقصوننا عنها فى سطوة ، ويحتلونها دوننا فى جراة ، وانهم ليتقدمون الصفوف ليكونوا سادة المجتمع الحديث فى الثروة والجاه والسلطان

وها نحن اولاء ، ابناء المجد التالد والعزة القعساء ، لا نملك ازاءهم الا ان نتنحى لهم عن الطريق ، وكيف ندافعهم وقد بلغ بنا الهزال كل مبلغ ، واصبحنا معهم فقراء لا نستطيع مكاثرتهم فيما تمتلىء به ايديهم من فضة وذهب !

لقد كنا منذ عهد قريب نشهد هذا الصنف العجيب من اغنياء الحرب ، وهم يضربون فى الأرض ، نافخين اوداجهم من الشبع ، مصعرين خدودهم من الكبرياء ، متفاخرين بالحلل القشيبة والحلى الغالية والسيارات الفارهة ، مزهوين بانهم ينثرون المال يمنة ويسرة ، كانهم يمتحون من نبع لا يغيض

وما اسرع ان رايناهم يتتبعون مواقع الارض فى كل ناحية ، فاذا هم يشيدون عليها الابنية الشاهقة بأيدى ساحرين ، كانهم يغرسون فى الارض بذورا لا تلبث ان تكون اشجارا فينانة فى لمح البصر

كان منهم نفر يحدجون القهوة فى مغداهم ومراحهم بالنظر الشزر ، يستهزئون بها وبمن يؤمها من الرواد ، ويتناقلون عنها وعن روادها الوانا من النكات والاضاحيك لكنا نسخر منهم فى ترفع وازدراء

ماذا فى القهوة يستوجب هذا الاستنكار ؟

لتكن ضئيلة الرقعة ، فحسبها انها تتسع لروادها

الكرام المنبت ، ولتكن هزيلة الاضواء ، فانها لابهج فى عيون
روادها من كل ضـــوء ساطع وهاج ، وليكن النـــازل
فيها قد تغضن وجهه ، وتهدل شاربه ، وبليت ميدعته ،
فانه مازال بقلبه الكبير وروحه الانيس يفيض على الرواد
ما يحبون من رضا وصفاء

هذا مقعدى الخيزرانى قد تقوضت اركانه ، ولم يستطع
ان يقوم بنفسه ، فأسندته الى الحائط يدعمه ، ولكنه مابرح
رفيقى الذى احس به يبسط لى ذراعيه ، ويفسح لى من
جوانبه ، فاطمئن فى جلوسى عليه اطمئنانا لا يتيحه لى سواه
من وثير المقاعد

ليت هذا النفر من اغنياء الحرب قد اقتصر على النظر
الى القهوة بعين الازراء ، واكتفى بالنكات يصبها عليها وعلى
روادها الكرام ، ولكنه ابى الا ان يقضى على القهوة وعلينا
فى غير هوادة ولا مرحمة

غدا تباع القهوة استيفاء لمـا ركبها من دين
غدا يمزق متاعها شر ممزق ... ولن يكون مصير
المقعد الحبيب الذى صافانى وصافيته زمانا الا ان يذهب
طعمة للحريق !

غدا يهوى المعول على مبنى القهوة ، فتنهار جنباته تحت
الضربات الثقال ، طاوية معها صفحة من روائع الذكريات
غدا ينسدل الستار على حياة ذلك المكان العزيز

وغدا ايضا يمسك قلبى عن خفوقه ، ليطوى صفحة
ايامى فى هذا الوجود !

ياسادة ياكرام

القلب وان كان قاسيا يحن الى المغفرة ، الى العفو عن الخطيئة ، وهو فى ذلك يسمو بعاطفته ، حتى يصبح جديرا باسم « الانسان »

على مصطبة رحيبة من دار متواضعة ، فى قرية « كفر النعام » جلس الشيخ « صفوان » يصيب فطوره مع صديقه الحميم الشيخ « موهوب » ...

وكان الشيخ « صفوان » فى هذا الصباح يحس بالهم بداخله ، فهو حزين النفس ، مطرق الراس ، نظراته قلقة لا تعرف لها من هدف ، تراه وقد انبسطت يده الى صحفة الطعام ليتناول منها مضغة يدسها فى فمه ، فكانك ترى آلة تتحرك دون ان تعى

وبينما هو كذلك ، اذ اقبلت عليه خادمته العجوز « ام الخير » ، وما لبثت ان مالت عليه تلقى فى اذنه كلمات ، فلما سمعها الرجل اهتز فى مجلسه ، وبرقت عيناه ، وتطاول بعنقه يقول جهير الصوت :

ـ ابنتى «حليمة» عادت ؟ ... لا اعرف لى ابنة بهذا الاسم ... اليك عنى يا امراة ... اغربى عن وجهى والا حطمت عصاى فوق راسك ..

وانسرحت يده تتلمس العصا حواليه ، فاسرعت المراة تمضى عنه فى خشية وفزع

ولبث الرجل ماخوذا يطبق عليه صمت ، وقد رجع بمخيلته القهقرى سنوات يعرض من ماضيه تلك الصفحة المخزية النكراء ، صفحة ابنته وقد زلت زلتها الكبرى فالحقت بالاسرة عار الابد ... تفريط فى العرض ، ووراءه حمل اثيم!

كان هـذا منذ سنين عشر ، وابنته يومئذ لم تجاوز السادسة عشرة ، فغادرت القرية باثمها الى غير رجعة ، وخلفت له ذكرى مريرة ، طالما شقى بها ولاقى منها الويل والثبور

وازهرت عين الشيخ « صفوان » ، واذا هو يلتفت الى جليسه الشيخ « موهوب » يقول له متهدج الصوت ، ملوحا بيده :

— اى ابنة تلك التى عادت ؟ ان ابنتى ماتت منذ زمان ... لم يعد لها فى الارض وجود !

وحاول الشيخ «موهوب» ان يسكن من روع صديقه ، وان يرد اليه طمانينة نفسه ، حتى يستانف طعامه ، فكان الشيخ « صفوان » يلوك اللقمة فى فمه ولا يكاد يسيغها ، وهو ناكس الراس ، خافض البصر

ولم يجد الشيخ « موهوب » بدا من ان ينصرف عن المجلس ، تاركا صديقه على مصطبته ، لعل السكينة تراجعه فى خلوته ، فبقى الشيخ « صفوان » وحده طويلا تعبث به الذكريات ، حتى الفى عينيه تجودان بالدمع

وضرب الرجل يده فى صدره يخرج مصحفه ، وفتحه امامه يريد ان يقرأ ، فاذا هو شارد النظرات لا يستطيع الى القراءة من سبيل

وتراءت « ام الخير » على مقربة من المصطبة ، وهى تتدانى من الشيخ « صفوان » على تخوف وحذر ، حتى اخذت بقدمه تدلكها فى سكون ، واحس الرجل وجودها فصاح بها يقول :

ـ اياك ان تحدثيني عنها اى حديث . . .
فتشبثت المراة بعباءته مستعبرة تقول :
ـ رحماك يا سيدى رحماك !
ـ لا اعرف شيئا اسمه الرحمة . . .
وبدا الرجل كانما اكتسى وجهه باللهب ، واوصاله ترتجف ، فاستانفت المراة تقول :
ـ انها فى دارى ترتقب اذنك ، وترجو عفوك ، ولولا خشيتها منك لقدمت عليك ، تعفر وجهها بتراب رجليك
فانحنى الرجل عليها يدفعها بقوة ، وهو يقول :
ـ انصرفى عنى يا امراة . . .
ـ انها تبغى ان تراك قبل ان تموت . . . انها فى النزع الاخير !
ـ فلتذهب الى الجحيم . . .
ـ لقد جاءتك نادمة تائبة تامل ان تموت بين ذراعيك
وانطلق الرجل ثائرا كالبركان لا يعرف لخطواته قصدا ولا وجهة ، والهواء يلفحه كانه انفاس موقد يتضرم . . .
وكان يخيل اليه فى اثناء سيره ان هتفات تحيط بسمعه قائلة له :
ـ « حليمة » عادت . . . « حليمة » عادت . . .
وان هذه الهتفات تتوافق هى وخفقات قدميه على ايقاع واحد ، واحس ان تلك الجملة تشيع حواليه ، ويتسع نطاقها دونه ، فسمعها من حوافر الدواب ، ومن حفيف الشجر ، ومن كل ذى حركة او نامة فى عرض الطريق . . .

فاذا مر به احد من الناس ، فالقى عليه السلام ، اوكلمه فى بعض الامر ، حسبه يردد تلك الجملة التى تحاصره ...

وكذلك انقلبت الدنيا بأسرها افواها تنهى اليه عودة ابنته « حليمة » ، فهو يسمع النبأ رنينا فى هيكل جسمه، وهو يحسه اصداء تتجاوب بها جوانحه !

وظل الرجل يتخبط فى مسيره على غير هدى ، وفى وجهه علائم قلق واضطراب تثير الاشفاق ، وعن له ان يتوخى القهوة ، عسى أن يسرى عن نفسه بالجلوس فيها بعض ساعة ، فحث خطاه اليها ، كانه منها على موعد يخشى ان يفوته ، فلما بلغها طلب قدحا من القهوة ، وقصبة من الدخان ، ولكنه لم يجد للقهوة مذاقا طيبا يرضاه ، وكاد دخان القصبة يخنق انفاسه ، فانحى على غلام القهوة تانيبا وملامة ، ورمى اليه بالقدح وبالقصبة فى سخط وحنق ، ونهض من فوره يطلب الفرار

وانتهى به السير الى راس الترعة ، فاقتعد حافتها يتأمل فى مائها الرقراق ... فاذا هو يذكر حياة ابنته فى القرية ، كيف كانت فى عصر الطفولة ؟ كيف كان يحملها معه الى السوق ؟ كيف كان يجلس اليها ليحكى لها طرائف القصص ؟ كيف كان يلحظ من شانها انها غريرة طيبة القلب لا تعرف الدهاء والكيد

ويل للناس من الناس !

لو كانت « حليمة » من اولئك البنات اللواتى يعرفن اللؤم والخبث ، لما استطاع احد من الاوغاد أن يخدعها وان يريدها على غير ما يجمل بها ان تفعل ، ولكنها وقعت

فريسة الخديعة والمكر ، وهى بريئة النفس ، سليمة النية، مطواع !

انها توشك ان تلفظ النفس الاخير ، وانها لترجع تائبة نادمة تبغى ان تموت بين ذراعى ابيها الحنون ، وانها الآن فى بيت « ام الخير » تنتظر من الاب ان يعطف عليها بنظرة .. بذلك تحدثت « ام الخير » الى سيدها الشيخ«صفوان» لتقنعه بان ينثنى عن عزمه ، وان يغفر لابنته ماسلف ، ولكن هيهات ! ...

وسلك الرجل طريقه الى بيته ، ليسكن اليه فى ساعة الظهيرة ، بيد انه الفى نفسه على غير قصد حيال بيت آخر يعرفه حق المعرفة ... واذا هو بالباب مقيد الخطو لا يستطيع البراح

واراد ان يقول :

ـ اين انت يا « ام الخير » ؟

فخانه صوته ، واذا هو يصرخ من اعماق قلبه :

ـ اين انت يا « حليمة » ؟

وسمع صوتا ضعيفا يجيبه :

ـ انا هنا يا ابى !

فاقتحم الباب وهو يركض ، ووضح له شبح هزيل على الارض ملقى ، فارتمى عليه يناجيه :

ـ « حليمة » يابنتى ... « حليمة » يا حبيبتى !

واشترك كلاهما فى بكاء وانتحاب ، ثم اخذ الرجل ابنته المحتضرة فى حضنه ، فاستشعرت هدوءا يغمر نفسها الحيرى ، ودبت فى جسمها الحياة من جديد ، فتعلقت بصدر

ابيها كانما تخشى ان تفقده من بعد ، وظلا معا صامتين يتركان لروحيهما ان تتلاقيا وان تتصافيا فى غير جلبة ولا ضجيج ، واسبل كلاهما عينيه ، فاستخفى من حوليهما كل شىء ، وانسل بهما الزمن فترة ، يمسح عنهما ما خلفته لهما الايام من خزى والم ، ويردهما الى عهد نضر كله بشاشة وبهاء

وهمهم الاب يقول :

ـ سنذهب معا الى السوق لننتقى من الحلوى ما تحبين ... هاك الجاموسة فخذى زمامها وقوديها الى حيث تشائين !

فأجابت « حليمة » فى صوت كانه خطرات النسيم :

ـ السوق ... الحلوى ... الجاموسة !

ثم غشيها الصمت لحظة . وما لبثت ان عادت تهمهم :

ـ هلا رويت لى يا ابى قصة من قصصك المحببة ... !

وتراخت اوصال الاب وابنته ، وملكت عينيهما غفوة حالمة ... واذا الرجل يقول :

ـ ... كان ما كان ، يا سادة يا كرام ، لا يحلو الحديث الا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام ... كان الشاطر «حسن» يحب « ست الحسن والجمال » ... !

وقبيل مغرب الشمس ، خرجت من بيت « ام الخير » جنازة ضئيلة ، متخذة فى سيرها الى ربوة المقابر طريقا غير مالوف ، حتى لا تتناهبها العيون !

وعاد الشيخ «صفوان» الى داره فى دجوة الليل ، بعد أن نفض يديه من تراب ابنته ، وهو يردد :

ــ سبحان الحى الذى لا يموت

وفى الظهيرة من غد ، نودى لصلاة الجمعة ، فقصد الشيخ «صفوان» مسجد القرية ليؤدى الصلاة مع الناس ، وصعد الخطيب منبر المسجد ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم انبرى فى خطبته يحث المؤمنين والمؤمنات على الصون والعفاف ، ويذكر ما اعد الله للمفرطين والمفرطات فى الاعراض من انكال وجحيم ، وطعام ذى غصة وعذاب اليم ...

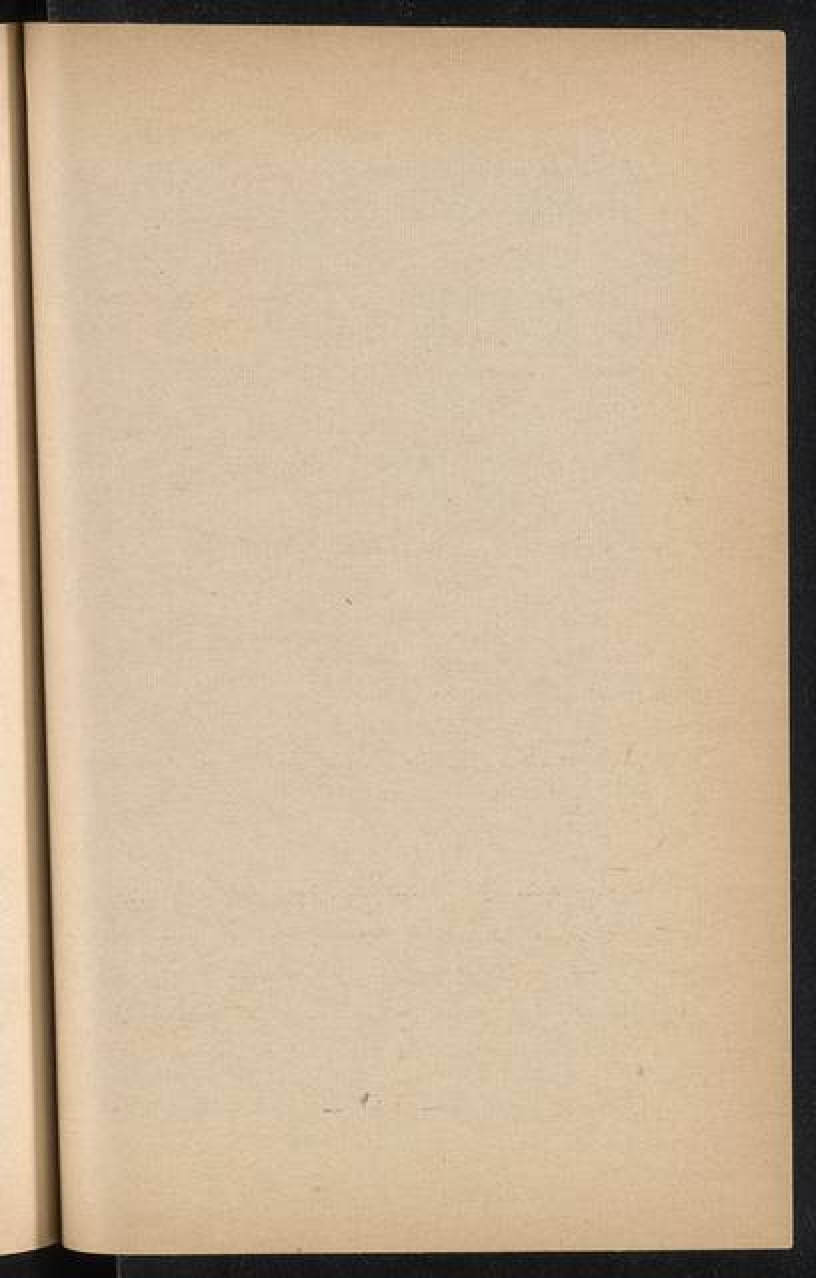
وهنا التهبت مسامع الشيخ «صفوان» وهو ينصت للخطيب المتحمس ، والفى نفسه يصيح بأعلى صوته :

ــ ليس لك ايها الرجل ان تتحكم فى مصير الناس.. انك لا تدرى من العاصى ومن المطيع ... الله وحده يعلم السرائر وما تخفى القلوب ...

فامسك الخطيب عن الكلام يتبين من الصائح ؟ واجتمع الناس على الرجل يسكتونه ، فراح يتابع قوله محتد النبرات :

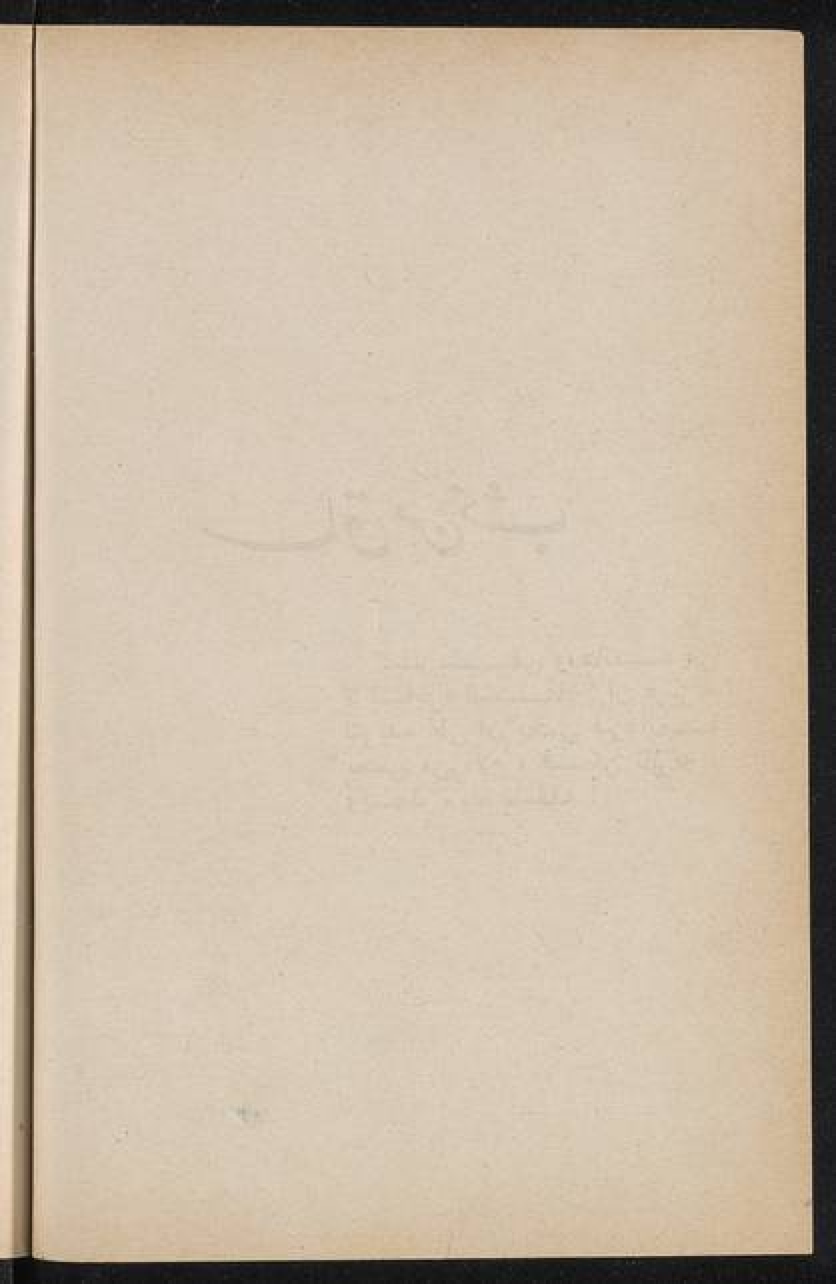
ــ الناس كلهم منافقون .. لا اريد ان يتكلم عن ابنتى احد ... انها طاهرة الذيل ، طيبة القلب ... لقد ماتت بين يدى تائبة ..

واختلط منطقه ، وزاغت عيناه ، وتشنجت اوصاله ، فدفعه الناس الى باب المسجد دفعا ، وما ان بلغه حتى خارت قواه ، فسقط على الارض يهذى ، وعند راسه صديقه الشيخ «موهوب» يروح له وجهه ، ويمسح الزبد الذى تسايل على جوانب فمه ...



ساق من خشب

كيف يشقى وبجانبه من لا يشاطره الشقاء ؟ ان غريزته لتريده على ان يحس غيره بما يحس من آلام ، فتسكن ثائرته ، ويسعد ... بشقائه !



فى حى « الحمزاوى » كان يقوم المنزل الصغير المتواضع الذى امضيت فيه عهد الطفولة والشباب ، وكان قبالة المنزل حانوت لتجليد الكتب ، نشأت اراه فى شكله العتيق عليه غبرة ، وقد كسيت وجهته كلها بأبواب كثيرة النوافذ معتمة الزجاج ، على ان اغلب الواحها الزجاجية قد تحطم فاستبدل به الورق المقوى

واذكر انى كنت بادىء بدء ـ وانا طفل ـ ارهب هذا الحانوت ايما رهبة ، ولا أخاله الا جبا تؤمه العفاريت . . . اذ كان ظاهره أقتم عليه سيماء العبوس ، وكان مدخله حالك الظلمة ، لا اتبين فيه الا اشباحا تتراقص فى جيئة وذهوب

بيد انى سكنت على مر الايام الى مرآه ، وتعرفت من يعمل فيه

هما اثنان : رجل وغلام . . .

أما الرجل فهو صاحب الحانوت ، اسمه «محمد عوف» له قامة مديدة ممتلئة ، وصدر عريض مفرطح ، وذراعان مفتولان ، ووجه مستدير مشرب بحمرة ، وشارب فاحم غزير . . . على هذه الصفة رايته أول مرة ، وظللت اراه عليها خلال الفترة التى قضيتها فى الحى معه ، بل لقد كنت أجده يزداد على السنين من فتوة وقوة ، ويتوهج فى عينيه ذلك البريق السحرى الذى يسلطه على الناس ،

فيرهبون سطوته ، ويخشعون لسلطانه

وأما الغلام فاسمه « عبد العزيز » وهو صبى صاحب الحانوت ، يساعده فى عمله ، ويؤدى له مطالبه ، وكان فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، ولكن من يراه فى ضموره وقصر قامته يحسبه لم يبلغ عامه العاشر . وكان متطاول الوجه ، كاسف اللون ، ذاهل العين ، موصول الصمت .. اذا مشى أمامك مشيته الراتبة ما شككت لحظة فى انه دمية من الخشب تتحرك بلولب ... وقد نشا هذا الغلام يتيما فاقد الرعاية ، فكفله المعلم « عوف » فى بيته ، وعلمه صناعة التجليد فى حانوته ، والزمه ظله كالآلة الطيعة يحركها كيفما شاء دون عناء

وتم بينى وبين الغلام تعارف ، اذ كان يجلس بعض وقت على دكة خشبية بجانب الحانوت يستريح ، فاذا صادفته كذلك فى اوبتى عصرا من المدرسة ، ذهبت اليه ، فشاركته مجلسه ، وجاذبته القول ، وكنت اساله عن شانه فيوجز الجواب

ولما استوثقت الصداقة بينى وبينه ، جعلنا نتهادى مختلف الاشياء ، اشركه فيما اشترى من صنوف الحلوى أو المرطبات ، ويقدم هو الى بعض دفاتر صغيرة يصنعها بنفسه من قصاصات الورق التى تتجمع فى الحانوت من بقايا اعمال التجليد ، وكثيرا ما كان يطبع اسمى بماء الذهب على بعض كتبى المدرسية

وبينما انا خارج من منزلى بكرة يوم التمس الطريق الى المدرسة ، اذ الفيت « عبد العزيز » فى منصرفه من

الحانوت ، على غير عادته ، وهو ممتقع الوجه ، كليل النظر يكسو عينيه ذبول ... فعجبت من امره ودنوت منه اسأله :

ــ ماذا كنت تصنع فى الحانوت يا « عبد العزيز » ؟

فاجابنى شارد النظرات ، كأنه فى اعقاب حلم :

ــ لقد قضيت ليلتى فى الحانوت ؟

ــ وحدك ؟

ــ نعم

ــ فى هذا الجب المخوف ؟

ــ نعم .. وبلا نور !

ــ ولم سجنت نفسك هذا السجن الفظيع !

ــ بذلك امرنى معلمى

ــ الم تخف ؟

ــ لقد كلفنى ان اقضى الليل ساهرا ففعلت

ــ ولماذا ؟

فأطرق يهمهم :

ــ عاقبنى على اهمال منسوب الى

فحاولت أن استزيده ، فاقتضب الكلام ، كأنه ليس عنده ما يقال ...

وتزايل عنى ما كنت استشعره من فزع لهذا الحانوت ، فقد دخلته ازور صديقى فيه أثناء مغيب معلمه عنه ،وكانت الظلمة لا تنجاب عن ارجائه حتى فى رائعة النهار ، وكنت اتخذ مجلسى قريبا من الباب على مقعد خشبى انظر الى « عبد العزيز » وهو يعمل ، واتحدث اليه فى الفينة بعد الفينة ، فيبادلنى الحديث فى اختصار واقتصار ، على حين

يرتب الكتب على منضدة التجليد ، ثم ينزع عن كل كتاب غلافه ، ويخيطه على اسلوب فنى اشبه بالنسج على المنوال

وكانت نفسى تهتاج اذا رايته يعمد الى قص اطراف الكتب بالآلة القاطعة ، وهى ذات شفرتين عريضتين مسنونتين تعملان فى اطراف الكتب ما تعمل المقصلة فى رقاب المجرمين ولشد ما كنت ارهب هذه الآلة واتنكب عن مكانها فى الحانوت ويوما قلت « لعبد العزيز » :

– الا تخشى على نفسك من هذه الآلة القاطعة ؟

فعبرت فمه ابتسامة ، واجاب ويده تلاطف حديدها :

– وفيم الخوف ؟ انها صديقتى التى لا تؤذينى

– وماذا يكون الامر اذا انطبق حداها على يد انسان ؟

– لا ريب انها تقطعها فى الحال

– احدث شىء من هذا لاحد من العمال ؟

– ربما حدث .. فى النادر !

وجاء يوم عرفت فيه المعلم « محمد عوف » نفسه صاحب الحانوت ، فاغرانى اول الامر بتجليد بعض الكتب المدرسية ، ثم جعل يتولى تجليد ما عندى من كتب روائية وكنت بالقصص مشغوفا ايما شغف ، ولما نضب هذا المعين لم اجد الا الدفاتر والكراسات اكل اليه تجليدها ، والرجل يواصل اغراءه لى ، وكنت لا استطيع لنفوذ نظراته وخلابة اقواله ان ارد له مطلبا ، او اعصى له نصحا ...

والفت بعد ذلك الا آنس بالكتاب اذا كان غير مجلد ، واصبح ذلك هوسا تمكن من نفسى واستحكم ، ومازلت حتى الساعة اشعر بشىء من سلطانه على

ولزام ان انصف المعلم « عوف » فاشهد له بالنبوغ فى فن التجليد ، اذ كانت له فيه اساليب مبتكرة تدل على شدة حذق وصفاء ذوق ، ولذلك اتصلت معاملتى له ، فلم اتركه الى غيره ، حتى بعد ان اتممت الدراسة ، وخرجت الى غمرات الحياة

وكان مبلغ علمى ان المعلم « عوف » يتخذ له ماوى فى منزل صغير عن كثب من الحانوت ، لا يساكنه فى ماواه الا صبيه « عبد العزيز » ، اذ توفيت زوجته منذ اعوام ، ولم يكن له منها ولا من غيرها عقب ، فعاش فردا مع صبيه لا يكاد يزور قريبا أو يزوره قريب

وطوحت بى ضرورة العمل الى « الاسكندرية » ، فنقلت اليها أسرتى ، ومكثت هنالك زهاء خمس من السنين ، لم اهبط خلالها « القاهرة » مرة

وقدر لى بعد ذلك ان اعود ، فاتخذت فى « القاهرة » مسكنا فى غير الحى الذى شببت فيه ، ولكن سرعان ما خطر لى ان اقصد ذلك الحى القديم ، وان ازور فيه صديقى المعلم « عوف » وصبيه « عبد العزيز » ، وان احمل معى مجموعة من الكتب للتجليد ، وما ان طرقت الحانوت حتى لمحت « عبد العزيز » وحده فيه ، وقد بدت عليه سيماء الرجولة فنبت له شارب ، بيد انه ظل على حاله ضامر العود ، مهزول الاوصال ، جهم السحنة ، فلما رآنى خطا نحوى خطواته الآلية ، يمد الى يده الصلبة ، وعلى فمه ابتسامة باردة ، فهششت له ، واقبلت عليه أصافحه ، وصحت به :

ــ امازلت فى الحانوت يا « عبد العزيز » ؟

ـ وهل خطر ببالك يا سيدى ان اتركه ؟
ـ حسبتك اصبحت معلما له حانوت وصبيان
ففغر فاه مدهوشا يقول :
ـ انا اصبح صاحب حانوت ؟ انا اترك معلمى ؟
ـ اتظل صبيا طول عمرك ؟
فقبل يده ظهرا وبطنا ، وقال :
ـ الحمد لله على كل حال !
فقلت له وانا ابعثر نظراتى فى الحانوت :
ـ واين المعلم « عوف » ؟
فاكتسى وجهه بسحابة كدراء ، واطرق لايجيب ، فعجبت من امره ، وقلت اسأل :
ـ ماذا ، لا قدر الله ؟
فرفع « عبد العزيز » راسه ، وقطرات الدمع تحبو على خديه ، واجابنى مختنق الصوت :
ـ انه مريض يا سيدى
ـ وهل مرضه مميت ؟
ـ كلا . . .
ـ اذن فيم بكاؤك ؟
فدنا منى واخذ بيدى يشد عليها وهو يهمس :
ـ لقد اصبح كسيحا يا سيدى . . .
ـ كسيحا ؟ . . وكيف ؟
ـ سقط من « الترام » سقطة بترت ساقيه !
ـ يا للهول !
وامسكت عن الكلام لحظات ، وانا افكر فى شان هذا الرجل

المنكود ، وفيما يعانيه الآن من ذلة وانكسار ، وقد كان ذلك الجبار الذى يبث الهيبة حوله اينما سار
ورفعت بصرى الى « عبد العزيز » اساله محزون النبرات :
ـ اما زال يسكن فى منزله القريب من الحانوت ؟
ـ مازال يا سيدى ...
ـ اريد ان ازوره .. هل لك ان ترافقنى ؟
ـ انا طوع أمرك
وخرجنا من الحانوت ، وتوخينا منزل المعلم « عوف » ، يتقدمنى « عبد العزيز » ليدلنى على الطريق ، فما اجتزنا الباب حتى صعدنا سلما من خشب ، افضى بنا الى ردهة صغيرة معتمة تنبعث منها رائحة تزكم الانف ، ولم اكد اتخطى عتبة القاعة حتى انتهى الينا انين كانه زمزمة الاسد الحبيس ، فالفيتنى امسك عن السير ، وقد تمشت فى نفسى رهبة ، وملت على مرافقى اهمس :
ـ هو ذلك الذى يتوجع ؟ ...
فاوما براسه ، وساقنى الى مخدع معلمه ، فاذا الرجل مستلق على حشية عريضة ، وقد احاطت به وسائد ، فتقدمت اليه اصافحه واقول :
ـ الحمد لله على سلامتك يا معلم ..
فلاطف يدى يشكر لى ، وفمه ترتسم عليه ابتسامة كئيبة ، وغمغم خشن الصوت :
ـ الحمد لله .. الحمد لله !
وكانت الحجرة ساطعة الضوء ، فاستطعت أن أرى الرجل

حق الرؤية ، وان الاحظ ما طرأ من تغيير عليه ، لقد ضخم جسمانه ، وترهل جلده ، وبدت لحيته كثة مهوشة . ولكنه مع ذلك متورد الوجه ، بارز الصدر ، مفتول الذراعين ، اما عيناه فهما على نحو ما كانتا من قبل ، بل لقد ازدادت مقلتاهما من توقد واضطرام

ولبث الرجل يرحب بى ، ويسألنى عن مغيبى ، ثم انطلق يقص على ما كان من نبأ الحادث الذى اودى بساقيه ، وكان « عبد العزيز » فى اثناء ذلك قد صنع القهوة وجاء بها الى ، ولما فرغ المعلم من حديث الساقين استأنف يشكو ويتذمر ، فيقول :

ـ لقد اصبحت لا أطيق الحياة .. انى فى سجن كريه أمضى ما بقى لى من ايام ... لماذا لم يقض « الترام » على كل القضاء ؟ ...

ورمى الرجل بنظرة من عينيه الى « عبد العزيز » وهو يشير اليه فى عنف ، فرأيت الفتى ينتفض من فزع ، ويحنى راسه فى خضوع ، فجعل المعلم يقول :

ـ وهذا .. هذا الواقف امامك الذى تعبت فى تربيته وتعليمه حتى صار رجلا يفخر بنفسه وبصنعته ، هذا الذى ظننته ابنا لى يعرف حق ابوتى ، او قريبا لى يعرف واجب القربى ... لقد انكشفت حقيقته امامى ، فاذا هو جاحد فضلى عليه ، منكر جميلى له .. اقسم انه مسرور بما اصابنى ، وانى لاقرا السرور فى عينيه .. انه يرقبنى وانا اتنقل من مخدعى ازحف على يدى ، فتمتلىء نفسه شماتة بى ، وكانى اسمعه يقول : « ازحف على يديك ،

فقد اصبحت بلا ساقين ! » ... ويحك من دنيء يا « عبد العزيز » ... ولكن لماذا لاتتعالى على ، ولك ساقان سليمتان لعلك تفكر فى ان تركلنى بهما ؟ ... تعال افعل ، ولا حرج عليك !.. الست الآمر الناهى فى منزلى ؟ الست سجانى ؟ تعال اقذف بى من هذه النافذة ، فقد اصبحت لا املك عن نفسى دفعا ... وماذا استطيع وانا مبتور الساقين ؟ انى لاجدك شديد التباهى بنفسك يا محدث النعمة ، واراك تسير مختالا كأنك تقول لى : « أين انت ايها الكسيح منى انا الصحيح ؟ راسك الى الارض وانت زاحف . وراسى الى العلاء وانا اسير ! » ...

ولبث فمه يتدفق بهذا التانيب والتقريع ، وانا فى لجة من الدهشة ، لا ادرى كيف أهدىء روع الرجل واسرى عنه ، انظر اليه تارة فاراه كالبركان الثائر يقذف بالحمم ، وارجع النظر كرة الى « عبد العزيز » فاذا هو كالعود النخر يوشك ان يتهاوى ...

ووقفت اودع المعلم « عوف » وأرجو له سكينة النفس ورخاوة البال ، وما هى الا ان هرولت اغادر هذا السجن الموحش ، وقد بنيت عزمى على الا أطأ له عتبة من بعد ..

وانقضت اسابيع وانا اتمثل شبح الرجل الكسيح فى لحيته الشعثاء ونظرته النكراء ووجهه الملتهب ...

واعجب ما كان من امرى انى احسست شعورا دفينا يلح على ان أعاود زيارة الرجل ، وعبثا حاولت اقصـــاء هذا الشعور عنى ، فاقلتنى سيارة الى الحانوت ، وهنالك تبينت « عبد العزيز » حيال منضدة التجليد يعمل ، وقد رانت

على وجهه صفرة شاحبة ، وبدا كأنه غصن ناحل ذهبت بنضرته جدوبة الخريف . فابتدرته أسأل :
ـ كيف حال المعلم ؟
ـ أسوا حال
فتبعته الى منزل الرجل أزوره فيه
ولم احمد هذه الزيارة ، كما كان شأنى فى الزورة الاولى بل لقد خرجت هذه المرة انعى على نفسى ضعفها فى مطاوعة ذلك الشعور الغامض الذى قادنى الى رؤية هذا الرجل ، والى سماع ما يصبه على الناس اجمعين من حسد وبغض ، وما يخص به صبيه « عبد العزيز » من شـــــكاية وزراية واستنكار ، وفيما أنا منصرف عن الرجل ، حانت منى التفاتة الى « عبد العزيز » فالفيته غائم العينين يذرف منهما الدموع الغزار
وعلى الرغم منى كررت زيارتى لهذا الرجل الناقم ، وفى كل مرة اخرج من عنده حانقا على نفسى وعلى العالم كله ، وملء جوانحى تقزز ونفور ، كأنى أخرج من قبر راعتنى فيه جيفة عفنة لا تطاق
وكان « عبد العزيز » على توالى الايام يستبد به الهزال وتجحظ عيناه جحوظا يجعله اقرب الى الشبح المخيف ، وكأنه هيكل عظمى يتحرك لينشر الرعب من حوله على من يراه ...
وفى اخرى زياراتى لصديقى البغيض المعلم « عوف » صادفته يتقلب على فراشه كالملسوع ، وفمه يهدر بلعنات جياشة ، وقد اخذته نوبة شيطانية من الضجيج والعجيج

فامتدت عدواها الى ، وشعرت بالنار تسرى فى اوصالى ، واذا انا احس رغبة عارمة فى الصراخ والتدمير ...

وانقلب الرجل ثورا هائجا يعض الوسائد ويمزقهـا بأسنانه ، ويبعثر قطنها فى ارجاء الحجرة ، فاعترانى خوف شديد ، وهممت ان اهرب من وجه الثائر المهتاج

وسرعان ما سمعت صوتا ابح ، واذا هو « عبد العزيز » يتلوى بجوار الباب ، ووجهه جمرة تتضرم ، ويده تلوح بقوله :

ـ كفى يا معلم .. كفى !

وخرج يقفز ، فقفزت اثره بلا وعى ، وادركته يجتـاز باب المنزل كالسهم المارق ، ويمضى صوب الحانوت ...

فتمهلت فى مسيرى استعيد رباطة جاشى . ولما قاربت الحانوت سمعت من جوفه صرخة مدوية اقشعر لها بدنى وتسمرت قدماى ، فوقفت لحظات لا أملك لنفسى رشدا

على انى تدانيت من باب الحانوت اتشجع ، والقيت من خلف الزجاج نظرة ، فلم يبح لى الظلام عن مكنـون . واستطعت أن اقتحم الباب ، فرايت على خطوات منى مشهدا ممضا لا انسى فظاعته ما حييت ، ذلك هو « عبد العزيز » ملقى على الارض بجوار الآلة القاطعة للورق ،والدم ينهمر حواليه ، وساقاه على مقربة منه ، منفصلتان عنه !

فاما ما كان من بعد ، فقد انتهى كل شىء على خير مايمكن ان يكون ...

اسعف « عبد العزيز » بالعلاج ، وعاد بعد أسابيع الى

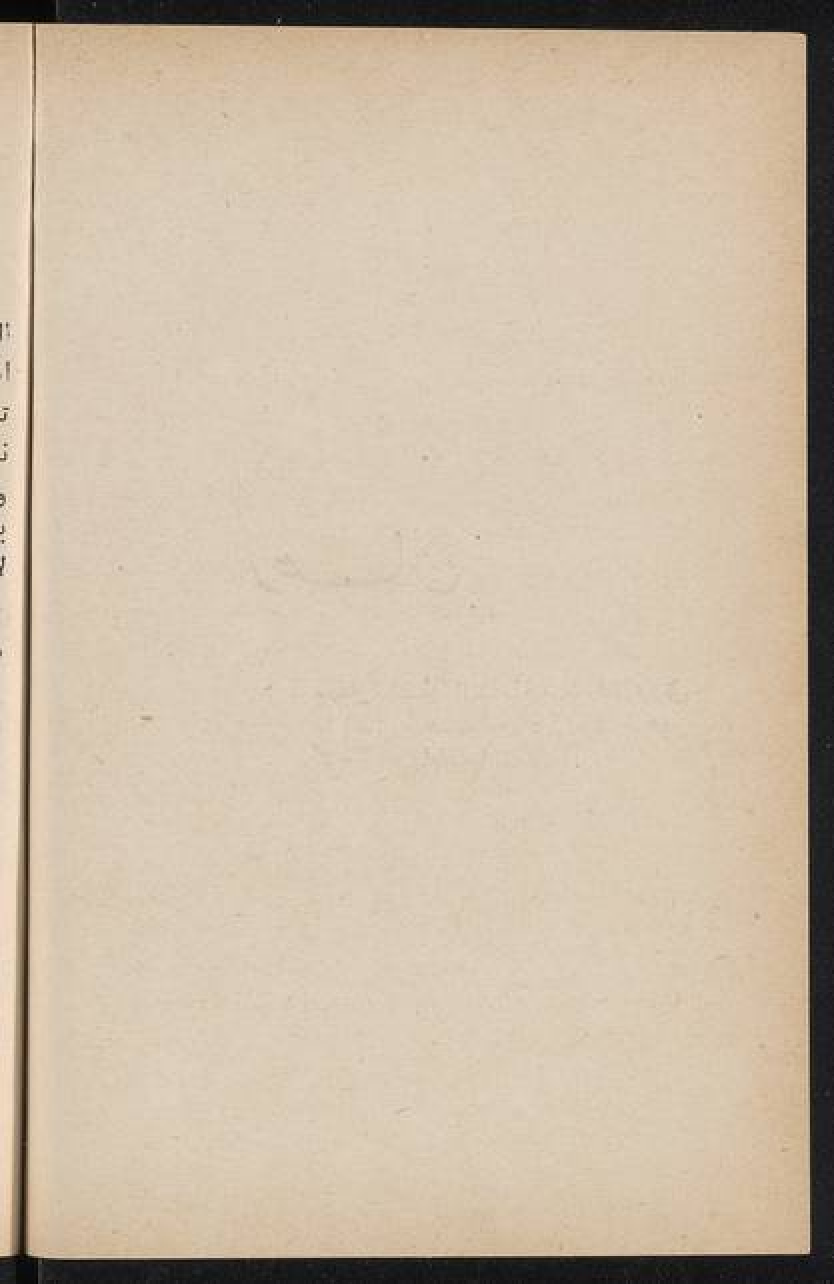
الحانوت ، يتحامل على مسندين خشبيين ، ليزاول عمله أمام منضدة التجليد ، كأن لم يحدث له حادث يذكر !

وقد سكنت ثائرة المعلم « عوف » فلم يعد يبدى من شكاية او تذمر . بل لقد عراه انقلاب ، فأصبح وادع النفس يهش ويبش ، ونشط للعمل ، فترك سجنه فى المنزل ، وخرج الى الدنيا يستقبل الناس ويبادلهم الود ، وقد استبدل بساقيه المبتورتين ساقين أنيقتين من خشب !



رهـــان

ربما اســاء الينا احد ، فلاندرى ما الذى نحسه نحوه ؟ اهو شعور كره ؟ ام عاطفة اشفاق ؟



« سليم افندى » طالب فى مدرسة « الذكاء المصرى » الثانوية ، عرف بين اخوانه بميله الى الادب العربى ، وجودة اسلوبه فى كتابة موضوعات الانشاء . وكان من بين زملائه تلميذ اسمه « مجدى » لا يفتأ يحسده على مكانته التى نالها ، ويأبى ان يعترف له بها ، وان كان يتظاهر بصداقته وكثيرا ما يجادله فى شئون تافهة ، يتشبث فيها « مجدى » برايه ، مع وضوح الحق فى جانب رفيقه ، و « سليم » لا تغيب عنه دخيلة زميله ، ولكنه لا يبالى ضغينته ، اذ كان قانعا باخلاص صديقيه الحميمين « حسين » و « على » والاربعة الرفاق يلازم بعضهم بعضا اكثر الوقت فى الفترات يتذاكرون معا فى بيوتهم على التناوب ، لكل بيت يوم .. الفول القريب من المدرسة . فاذا ما اقترب الامتحان الفيتهم يتذاكرون معا فى بيوتهم على التناوب ، لكل بيت يوم . .

ترك « سليم » المدرسة ، يوما من الايام ، متابطا محفظته وقصد محطة الترام ليركب عائدا الى منزله ، وطال مكثه على غير جدوى ، اذ تأخر الترام عن موعده ، فضجر ومر به بائع الصحف ، فاستوقفه ، وجعل يتصفح مجموعة من الجرائد والمجلات ، وفيما هو يبحث ، عثر على صحيفة لم يكن قد رآها قبلا ، اعجبته لاحتوائها على كثير من النبذ الادبية ، وهى تسمى « راية العرب » فاشتراها . وقدم الترام فركبه ، وقطع الوقت يقرأ ما راقه من الموضوعات

وقد لا حظ ان بعض المقالات مذيل بأسماء بعض الطلبة

وعاد « سليم » الى منزله ، وهو مغتبط بصحيفته ، ودخل حجرته ، وما لبث ان شعر برغبة ملحة تدفعه الى الكتابة ، ولكن فى اى شىء يكتب ؟ لقد اضطربت الموضوعات فى رأسه ، فلم يدر ايها يختار ؟ وطفق يسير فى الغرفة ويداه الى ظهره ، ثم وقف امام النافذة يتامل جنبــــات الطريق ، فاسترعى بصره منظر يصلح ان يكون موضوعا طريفا لمقالته ، فاستل القلم ، ومضى يكتب ... وطالت على هذه الحال جلسته ، لم يغير موضعه ، ولم يرفع بصره عن اوراقه ، حتى استكمل موضوعه . وحينئذ وضع القلم جانبا ، وراح يمسح وجهه بمنديله . ونظر حوله ، فالفى الحجرة موحشة بدات جحافل الظلمة تحتلها . وعاد الى مراجعة ما كتب ، فافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة ..

وبينما هو كذلك ، اذ الباب قدانفرج ، وظهرت «دلوعة» شقيقته الصغرى ... رآها تدخل فى محاذرة وتلصص فاختبأ خلف الستارة ، فوجدها قد انطلقت تجمع بعض الاوراق من مكتبه ، فاضاء الحجرة على الفور ، وخاطبها فى لهجة عنيفة ، قائلا :

ــ الم انبه عليك الا تدخلى حجرتى ، ولا تقربى مكتبى ؟

فأرتج على الفتاة بادىء بدء ، ثم مالبثت ان استعادت شجاعتها ، وقالت :

ــ لقد اتيت لانظف مكتبك !

ــ كذابة !

ـ والله العظيم لقد ...

ـ لاتحلفي بالله كذبا يا « دلوعة » ... انى اعرف لماذا اتيت ... جئت لتسلبي مكتبي اوراقه !

فنكست الصبية راسها ، وواصل « سليم » حديثه ، قائلا :

ـ تأخذين اوراقي لتلعبي بها .. وهل انسى ما فعلته بكراسة الانشاء ؟

فنظرت اليه في استكانة وضعف ، وغمغمت :

ـ وماذا فعلت بها ؟!

ـ جعلت من بعض أوراقها لفائف ملأتها باللب والحمص ووزعتها على صويحباتك !

ـ اؤكد لك انى لم ..

ـ قلت لك لا تكذبي ... واخذت تعبثين بالورق الباقي فقصصته على اشكال عرائسك ..!!

والتفت الى الاوراق التي كانت تجمعها ، ثم قال وهو يعيد ترتيبها :

ـ واليوم وقع اختيارك على مذكرات التاريخ والجغرافيا ما شاء الله ..!

ومد يده ليعرك اذنها ، فاذا هي قد اندفعت تبكي ، وهي تستغفره متذللة ، فهمس :

ـ كم من مرة بكيت واستغفرت !

فصاحت الفتاة وهي تشهق :

ـ ستكون هذه آخر مرة ، والله العظيم !

ومشت اليه ، وتشبثت بصدره ، وهي مازالت تبكي

فمكث « سليم » لحظة صامتا ، ثم شعر بنفسه يحتضنها ويربت ظهرها قائلا :

ــ عفوت عنك ، على شرط الا تعودى الى مثل ما فعلت

ــ لن اعود الى ذلك ابدا !

وخرجت تجرى ..

وتنهد « سليم » وهو يتبعها بنظره ، ثم عاد الى مقالته فقراها وهو جد مغتبط ، وراى انه لم يختر لها عنوانا بعد ، فرجع الى النافذة ، وسرح بصره فى الطريق المغمور باشعة القمر .. لبث على هذه الحال ساعة ، ثم خالجته نشوة من الفرح مفاجئة . وهرع الى المقالة يكتب فى راسها : رضيع يتالم !

غادر « سليم » منزله مبكرا فى صباح اليوم التالى ، وقصد من فوره صندوق البريد فأودعه مقالته .. ومن ثم اتخذ طريقه الى مدرسته ، وقضى يومه رخى البال ، وتعرف اصدقاؤه فى وجهه ابتهاجه ، فطفقوا يسالونه : ما الخبر ؟ فراوغهم ، ولم يكاشفهم بحقيقة الامر . ولكنه فى مختتم النهار ، حينما كان خارجا من المدرسة مع صديقه « حسين » ، الفى نفسه مندفعا يسر الى الصديق قوله :

ــ لقد ارسلت اليوم مقالة لجريدة «راية العرب» فمارايك فى ذلك ؟

ــ فكرة رائعة اهنئك عليها !

ــ اشكرك ..

ــ وما عنوانها ؟

ـ « رضيع يتألم » .. قطعة عاطفية وصفية !
ـ لقد احسنت صنعا باختيار الكتابة فى هذا النوع ، فانك نابغ فيه ..
ـ اتظن ذلك ؟
ـ بل اعتقد .. هل لك ان تطلعنى على مسودة المقالة ؟
ـ ساقرؤها لك ..
وانتبذا ناحية بمعزل عن اعين التلاميذ ، وشرع «سليم» يقرأ لرفيقه المقالة ، وما كاد يتمها حتى صاح «حسين» :
ـ تحفة فنية غالية يا صديقى .. اقسم باللهانى لم اقرا قطعة فى الصحف الادبية تفوق قطعتك هذه .. اهنئـــك يا صديقى !
فلمعت عينا « سليم » وقد عقد التأثر لسانه ، وسار الصديقان الى محطة الترام ، ويد احدهما فى يد الآخر ، والتفت « سليم » الى صاحبه وقال له :
ـ الم تر بعد « راية العرب » ؟
ـ كلا !
فنادى « سليم » بائع الصحف ، واشترى منه نسختين من الراية ، فاعطى واحدة لرفيقه وقال له :
ـ صحيفة راقية ذات موضوعات ادبية رائقة !
وجاء الترام ، فتصافح الصديقان ، وصعد فى المركبة « سليم » ملوحا « لحسين » تلويح الوداع
وقضى « سليم » الوقت فى الترام ، وهو مسترسل فى احلام هنيئة ، يبنى لنفسه مجدا عاليا فى عالم الصحافة والادب . وما ان دخل البيت حتى هرع الى مربيته العجوز

وشرع يحتضنها ويقبلها ، ثم همس فى اذنها :
ــ لقد بعثت مقالة الى صحيفة « راية العرب » !
فاصاخت اليه المراة ، وهى لا تفهم شيئا .. وواصل الفتى حديثه :
ــ انها صحيفة ادبية راقية ، وستظهر مقالتى فى العدد الآتى .. لقد اكد لى « حسين » انها مقالة رائعة !
وانبعث يحدثها عن المقالة والصحيفة وصديقه «حسين» ولما تبين له انها لم تع من قوله كثيرا او قليلا ، تركها وانزوى فى حجرته
وفى غده شاعت بين الرفاق فى المدرسة حكاية المقال ، اذ لم يملك « حسين » ان يكتم الخبر . فلما ظهر بينهم « سليم » اقبل عليه الزملاء يستجلونه الامر ، فانطلق يحدثهم عن المقال فى اسهاب . وحضر بعد قليل « مجدى » وجعل يتسمع ما يدور بين الرفاق من الحديث ، فما عرف انه دائر حول مقالة « سليم » حتى ارسل ضحكة سخرية، ختمها بقوله :
ــ ان امثال هذه القطعة الانشائية لن يكون نصيبها الا الاهمال !
فابتسم « سليم » واقترب من « مجدى » ولا طف كتفه وقال :
ــ واذا نشرت مقالتى يا صديقى ، فماذا انت فاعل ؟
فأسرع « مجدى » يقول :
ــ اراهنك على ان مقالتك لن تنشر !
ــ تراهننى على ذلك ؟.. حسنا !

فتوسط « مجدى » الحلقة ، وقال جهير الصوت :
ـ اذا نشرت المقالة ، فسوف ادفع «لسليم» نصف جنيه واذا لم تنشر ، دفع هو هذا المبلغ الى
فصاح « سليم » :
ـ قبلت الرهان !
ودق الناقوس ، فتاهب الاصدقاء لدخول الفصول ، وهم يتبادلون الحديث فى ذلك الرهان العجيب .. !
واخذ « سليم » يترقب ظهور « راية العرب » فى ايام الخميس والاثنين ، اذ كانت الصحيفة تظهر مرتين فى هذين اليومين من الاسبوع ، ولكن لتعس حظه لم يجد اثرا للمقال ..
وانقضت ثلاثة اسابيع ، والقلق يزدحم فى قلبه ، والهم يتكاثر عليه ، وكان « مجدى » يشترى الصحيفة ويأتى بها الى المدرسة ، باسطا اياها امام « سليم » وبقية الرفاق وهو ينادى بأعلى صوته ، محاكيا لهجة بائع الجرائد :
ـ راية العرب ، ومقالة السيد سليم اليوم ... ملحق !
فيعلو الخجل وجه « سليم » ويشيع الكمد فى قسماته، ولكنه كان يظهر التجلد ، ويجارى « مجدى » فى هزله ومجونه !
وفات على الرهان شهر ولم تظهر المقالة ، وكان الرفاق مجتمعين عن كثب من باب المدرسة ، فى ركن اعتادوا الاجتماع فيه . فجاءهم « مجدى » وقال :
ـ صبرت شهرا يا اخوانى ... ومن حقى ان اطالب « سليما » بدفع الرهان !

فأجاب « سليم » بهدوء :

– انت محق فى طلبك هذا يا « مجدى » ... وسأعطيك المبلغ غدا ...

ثم التفت الى الجمع ، وقال :

– ولننس ايها الاصدقاء خبر هذه المقالة السخيفة التى شغلتنا شهرا بلا فائدة ...

وقال « حسين » :

– واذا ظهرت المقالة بعد ذلك ؟

فعاجله « مجدى » بقوله :

– لا يهمنى ان تنشر بعد اليوم ... لقد انتظرت شهرا ظهرت فيه الجريدة ثمانى مرات ... حسبى هذا ...!

وتكلم « على » فقال :

– فلنرجىء البت فى الامر الى خروج العدد المقبل ، فاذا لم تكن فيه المقالة اجيب « مجدى » الى طلبه !

فوافق الجمع على هذا المقترح ، واهملوا ما ابداه « مجدى » من اعتراض ...

وكان اليوم التالى هو يوم الخميس ، موعد ظهور « راية العرب » . فغلت حماسة الرفاق ، وانتظروا بنافد الصبر خروجهم من المدرسة ليشتروا الجريدة ، ويروا لمن من الزميلين كسب الرهان ؟

وخرج الرفاق زمرة واحدة ، ميممين محطة الترام ، وهرع « مجدى » نحو بائع الجرائد ، واشترى منه نسخة من « الراية » وفعل مثله « على » و « حسين » ... واكب

الثلاثة يتصفحون الجريدة بلهفة . وما هى الا ان صاح « مجدى » :

ـ كسبت الرهان ... كسبت الرهان !.

واخذ يطوح بالجريدة فى يده ، ويطوف بها على الزملاء ، وهو يقول : لا اثر مطلقا لذلك « الرضيع المتالم » ايهـــا الاخوان ! ...

وشعر « سليم » كان خنجرا ينفذ فى صدره ، فوقف صامتا يقضم اظفاره ... واخذ بعض الرفاق الجريدة من « مجدى » وتناوبوا تصفحها ، فلم يجدوا فيها مقالة الزميل اما « حسين » فكان يستوعب صحائف الجريدة فى تؤدة ، معنيا بكل ما تقع عليه عينه من المقالات والنبذ . وفجاة سمعه الجمع يصيح :

ـ لقد عثرت على المقالة ... المقالة هنا ... !

وجرى نحو « سليم » وبسط الجريدة امامه ، واشار الى المقالة الافتتاحية قائلا :

ـ انها مقالتك ... هى بعينها ... خذ واقرا ...

فتناول « سليم » الجريدة منه ، وانبرى يقرا المقالة ، وفى لمحة اضاء وجهه ، والتمعت عيناه ، وقفز الى «مجدى» وهو يقول عالى الصوت :

ـ ها هى ذى مقالتى ... هى عينها ... انظر ... انظر ...

فرمقه « مجدى » بنظرة غيظ ودهشة ، واخذ الجريدة منه ، وراح يفحص عن المقالة ، واحاط الرفاق بالزميلين المتنافسين ، وقد اشرابت اعناقهم ... وبعد هنيهة رفع

« مجدى » عينيه عن الجريدة ، ونظر حوله ، ثم قال :
— لا ادرى كيف ينتحل شخص لنفسه مقالا ليس مذيلا باسمه ؟!

ثم ادار نظره الى « سليم » وقال :
— انت تدعى ان هذه المقالة لك ... فاين اسمك اذن ؟
فخطف « سليم » الجريدة من « مجدى » وبحث عن اسمه فى عقب المقال ، فلم يجده ، فاختلجت حدقتا عينيه ، وهمهم :
— انهم لم ينشروا اسمى !
فقال « حسين » :
— هذا غريب جدا ... ولكن لم لا يكون سهوا ؟
فتقدم « مجدى » وقال :
— ان نشر المقالة ، خالية من اسم الكاتب ، يفيد انها من قلم التحرير ... وفضلا عن ذلك فعنوان هذه المقالة ليس العنوان الذى اخبرتنا به ، وهو : رضيع يتالم ... !
فثار « سليم » غاضبا ، وهو يقول :
— انهم سرقوها ... سرقوها ، ونسبوها لانفسهم بلا تورع ... يالهم من اوغاد !
— هذا كلام واه لا ينهض به برهان ... انت تتهم قلم التحرير بالسطو على مقالتك ، لتسوغ موقفك ، اما انا فاتهمك بالسطو على قلم التحرير ، ونسبة المقال الى نفسك ... !
— انا اسطو على مقالة غيرى ؟... اتجرؤ على اتهامى بذلك ؟

فاتجه « مجدى » الى الرفاق ، وقال يخاطبهم :
ـ نحن هنا امام امر واضح يا اخوانى ... فاذا اراد « سليم » ان يثبت ان المقالة له ، فليقم على ذلك البرهان !
فنظر الرفاق الى « سليم » فصاح :
ـ تعالوا معى الى المنزل ... فاريكم المسودة !
فغمغم « مجدى » :
ـ نذهب الى المنزل لنرى المسودة ؟!
ـ وما المانع ؟!
ـ لا شىء ... لا شىء ... هيا !
وركب الزمرة الترام ، ووصلوا الى المنزل ، وقادهم « سليم » الى حجرته ، وقصد على الفور مكتبه ، ومد يده فى المكان الذى وضع فيه مقالته ، فلم يهتد اليها ، فأعاد البحث وهو يمعن ويتفحص ، فلم يجد شيئا ... فعجب اشد العجب ، وانطلق يفتش فى كل موضع يصح ان يضع فيه المقالة التائهة ، فذهبت جهوده عبثا . وكان قد تصبب جبينه عرقا من الاعياء ، واكفهر وجهه من الحيرة ... وترك الحجرة ذاهبا الى الخادم العجوز ، فالقى عليها بضعة اسئلة فى عجلة واضطراب ، فعلم منها ان اخته « دلوعة » دخلت حجرته فى اثناء غيابه ، وجمعت منهـا رزمة من الاوراق . فجرى على الفور الى غرفة اخته ، واندفع يبحث فيها ويجد فى البحث ، فكان نصيبه هذه المرة ايضا الاخفاق فرجع يسال الخادم : اين اخته ؟ فاجابته بانها ذهبت الى الخيالة(١) مع عمته ، فراح يضرب الارض بقدمه ، ويلوح بيده مهددا ، ويقول :

---

(١) السينما

ــ سترى ! ... سترى ! ...

واقبل على أصدقائه ، فاخبرهم بأن أخته قد دخلت حجرته فى غيبته ، وعبثت بأوراقه ، وكان المقال فيما عبثت به ... فاطلق « مجدى » قهقهة عالية وقال :

ــ ان أعذارك يا سيد سليم تدعو الى العجب ... اجئت بنا الى هنا لتسمعنا هذا الكلام ؟!

والتفت الى الجمع ، وقال :

ــ الى منصرف ايها الاخوان ... والى اللقاء فى المدرسة يوم السبت ... !

وهم بالخروج ، فاستوقفه « سليم » وقال له :

ــ عندى برهان آخر ... وارجو الا يخيب !

فوقف « مجدى » متبرما يقول :

ــ وما هو ؟

ــ ان نذهب جميعا الى ادارة « راية العرب » لاثبت لكم ان المقالة بقلمى ، وليكن ذلك غدا ...

فأجاب « مجدى » فى شيء من الاهمال :

ــ لا باس ... اذا كان هذا يرضيك !

ــ اذن فلقاؤنا فى مطعم الفول الذى تعودنا الافطار فيه قريبا من المدرسة ... وليكن موعدنا التاسعة صباحا ...!

□

فى صبيحة الجمعة ، اجتمع الرفاق فى مطعم الفول ، وبعد أن تناولوا فطورهم قاموا قاصدين ادارة « راية العرب » وكان الجمع هذه المرة منقسما حزبين ، الاول لمناصرة « سليم » والآخر لمشايعة « مجدى » ... وكان كل من

الحزبين يسير على حدة : حزب « مجدى » فى المقدمة ، يصحبه اللغط العالى والضحك المتتابع ، يتلوه حزب « سليم » بهدوئه وتهامسه . . .

واخيرا وصلوا الى ادارة «الراية» ، وكانت دارا متواضعة ذات طبقتين ، لا تمتاز عن دور الازقة الا بلوح مكتوب فيه اسم الجريدة ، معلق على جدار الدار ، لم تدع له الشمس نضارته . . .

وصادفوا الباب مفتوحا ، فدخلوا ولما لم يجدوا احدا فى صحن الدار ، وقفوا متحيرين ، فتقدم « مجدى » نحو السلم الواصل الى الطبقة العليا ، وجعل يصفق ، ثم رفع صوته قائلا :

ــ يا اهل الدار . . . الا يوجد أحد هنا ؟

فسمعوا صوت خطوات ، ظهر على اثرها غلام على اعلى السلم ، سالهم قائلا :

ــ من حضرتكم ؟

فاجاب « مجدى » :

ــ وفد من الطلبة

ــ وماذا تريدون ؟

ــ مقابلة رئيس التحرير فى امر مهم !

ــ انتظروا قليلا . . .

فوقفوا ينتظرون . ولما طالت غيبة الغلام ، ظلوا يروحون ويجيئون ، دفعا لسام الانتظار ، فاتضح لهم ان الطبقة الاولى ليست مسكونة ، وكانوا يسمعون من الطبقة العليا رجلا غير واضح الصوت ، فى نبراته ما يدل على التوبيخ

والتهديد . ثم تبع ذلك حركات مصحوبة بمواء قطط ، فأخذ الرفاق يلتفت بعضهم الى بعض ، ويتبسمون

وبعد يأس ظهر الغلام ثانيا على السلم ، وطلب منهم ان يصعدوا ، فارتقوا الدرج مسرعين ، ووجدوا انفسهم فى ردهة صغيرة ليس فيها من الاثاث الا بضعة كراسى قديمة منثورة حولها قصاصات من ورق الجرائد . وقادهم الغلام الى غرفة صاحب الجريدة ورئيس تحريرها ، فاذا هى غرفة رخيصة الاثاث ، قائم فى احد اركانها مكتب رياسة التحرير ... وما كاد الجمع يتوسط الغرفة ، حتى رفع « رئيس التحرير » راسه عن أوراقه ، وخطا نحوهم مرحبا ثم التفت الى الغلام ، وقال له :

ــ اذهب واعد القهوة على عجل ... وادع لى « خليل افندى » فى الحال

ولم تمض لحظة ، حتى صاح رئيس التحرير :

ــ يا « خليل افندى » ... يا بليد افندى ... يا حضرة الغبى ... ما هذا التأخير ؟!

ثم وجه حديثه الى الطلبة قائلا :

ــ لا مؤاخذة يا حضرات الافندية ... ان هذا الرجل لا يشتغل الا اذا طرقت الشتائم سمعه . مضت الآن ساعة وانا انتظر مقالته ...

ثم استأنف ينادى « خليل افندى » ناعتا اياه بمختلف النعوت المرذولة ...

وبعد فترة ظهر « خليل افندى » على عتبة الباب ، وقطه يتمسح بين رجليه ، وكان رجلا محطما ، زرى الهيئة ،

يحمل مجموعة من الاوراق تهتز فى يده بلا انقطاع ، ووجهه محتقن بزرقة دكناء ، يزدحم بالتجاعيد البعيدة الغور ، وعيناه محمرتان بلا اهداب . وكان يسير بخطا متثاقلة . وبين فترة واخرى يضطرب كتفاه بحركة عصبية ظاهرة

ولما اقترب من المكتب ، ناول رئيس التحرير اوراقه ، ووقف جانبا يهز كتفيه ، واخذ رئيس التحرير المقالة ، وانشأ يتصفحها بنظرات سراع . ثم رمق « خليل افندى » بنظرة شزراء ، ومزق الاوراق ، ورماها فى وجهه قائلا :

ـ مقالة اليوم رديئة جدا ... لا اقبل ان انشر فى جريدتى امثال هذه السخائف ... لقد كانت افتتاحية العدد الاخير احسن مقالة كتبتها فى حياتك !

وما بلغ هذا القول اسماع « سليم » حتى اختلجت اعضاؤه ... واستكمل « رئيس التحرير » حديثه مع المحرر قائلا :

ـ يجب ان تفهم ان دار جريدتى ليست مأوى للعجزة ولا مدمنى الخمر ... هيا ... تفضل ... !

فلم يبد اى تأثر على وجه الرجل ، وبقى كتفاه على حالهما تهتزان ... وانحنى على الارض ، يجمع قصاصة مقالته فى تبلد ، ثم خرج وهو يسير بخطواته المتثاقلة ، وقطه بين رجليه يتمسح فيه ويموء !

وكانت نظرات «سليم » فى اثناء ذلك لا تفارق وجه المحرر ، ولم يكن يدرى على التحقيق ما الذى يحسه نحوه فى هذه اللحظة ؟ اهو شعور كره ؟ ام هى عاطفة اشفاق ؟!

ووجد نفسه يقف بغتة ، ويتهيأ للكلام ... وظل كذلك

وقتا ، وهو يحاول ان ينبس ، فشخصت اليه الابصار ، وجعل صديقه « حسين » يشجعه ويغريه،ولكن بلا جدوى وجلس « سليم » وقد تضرج وجهه ، وتفصد العرق من جبينه

والتفت « رئيس التحرير » الى الجمع ، وقال :

ــ لقد اراد الافندى ان يتكلم ، ولكنه لأمر ما فضل السكوت ... الا استطيع ان اعلم اى خدمة تريدون ان اقدمها لكم ؟

فوقف « مجدى » وقفة الخطيب ، وتكلم بصوت جهورى طليق :

ــ سيدى رئيس التحرير ... نحن وفد من طلبة المدارس الثانوية ، جئنا نعرض شكوانا من تشعب البرامج الجديدة ، وازدحامها بالمواد ، مع ضيق الوقت وقلة المؤلفات ...

فنظر الرفاق بعضهم الى بعض مدهوشين ، ولما سمع « سليم » قول زميله « مجدى » غلى الدم فى عروقه ، وانقضى وقت وهو يحمل نفسه على الكلام ، ثم وقف يمسك بمقعد امامه ، ويستند اليه ، فتطلع اليه « حسين » محمسا ، فاندفع فى خطابة مسهبة ، فاذا به يشرح لرئيس التحرير ــ بمنطق مهوش ــ صعوبة المواد وقلة الأكفاء من المعلمين الجدد الذين كلفوا تدريس هذه المواد ...

وكان يتكلم محتدا مهددا ، فكأنه يسب ويصخب ، ثم بدا يتلعثم ، واشتد احتقان وجهه ، وتوالى ارتجاف اعضائه ولما راى « حسين » ما وصلت اليه حالة صديقه ،

جذبه من سترته ، راغبا اليه فى السكوت ... فامسك « سليم » على الفور عن متابعة الكلام ، وجلس على مقعده وهو يجفف عرقه ، ويروح وجهه !

وقام « مجدى » والغبطة تشيع فى وجهه ، وقال لرئيس التحرير :

ـ الآن يمكننا ان نستاذن يا استاذ ، ولا تؤاخذنا فيما اضعناه من وقتك الثمين الذى عرضنا فيه مسالتنا ... نحن شاكرون لك حفاوتك بنا اجزل الشكر ...

وتقدم من « رئيس التحرير » فصافحه ، وما لبث ان مشى الى الباب ، فحذا حذوه الزملاء ...

وما ان اقلهم الشارع ، حتى انفجر « مجدى » ضاحكا وهو يقول :

ـ ما رايكم ايها السادة فى هذه المهزلة ؟ حقا انها لمهزلة لم يسمح بمثلها الزمان قط !

واقترب « سليم » من « مجدى » ، واخرج من جيبه خمسين قرشا ، ثم ناول زميله اياها ، وهو يقول فى صوت اجش مضطرب :

ـ لقد كسبت الرهان يا « مجدى » ، وها هوذا فى يدك لم ينقص ... فاهنئك !

وترك الرفقة المكان ، عدا « سليم » و « حسين » فقد مكثا واقفين حيث هما لا يتحركان . والتفت « حسين » الى صديقه ، وقال :

ـ حقا لم استطع ان افهم شيئا مما جرى ... لماذا لم تتكلم فى الموضوع الذى جئنا من اجله ؟... او لماذا

لم تطلب الى ان افعل ذلك نائبا عنك ؟

فأخذ « سليم » يد صديقه فى يده ، وشد عليها ، وهو يقول :

ـ او كنت تظن انى اناقش ذلك المحرر الحساب ؟ ماذا كنت تريد منى ان أصنع برجل محطم مهدم كهذا الرجل

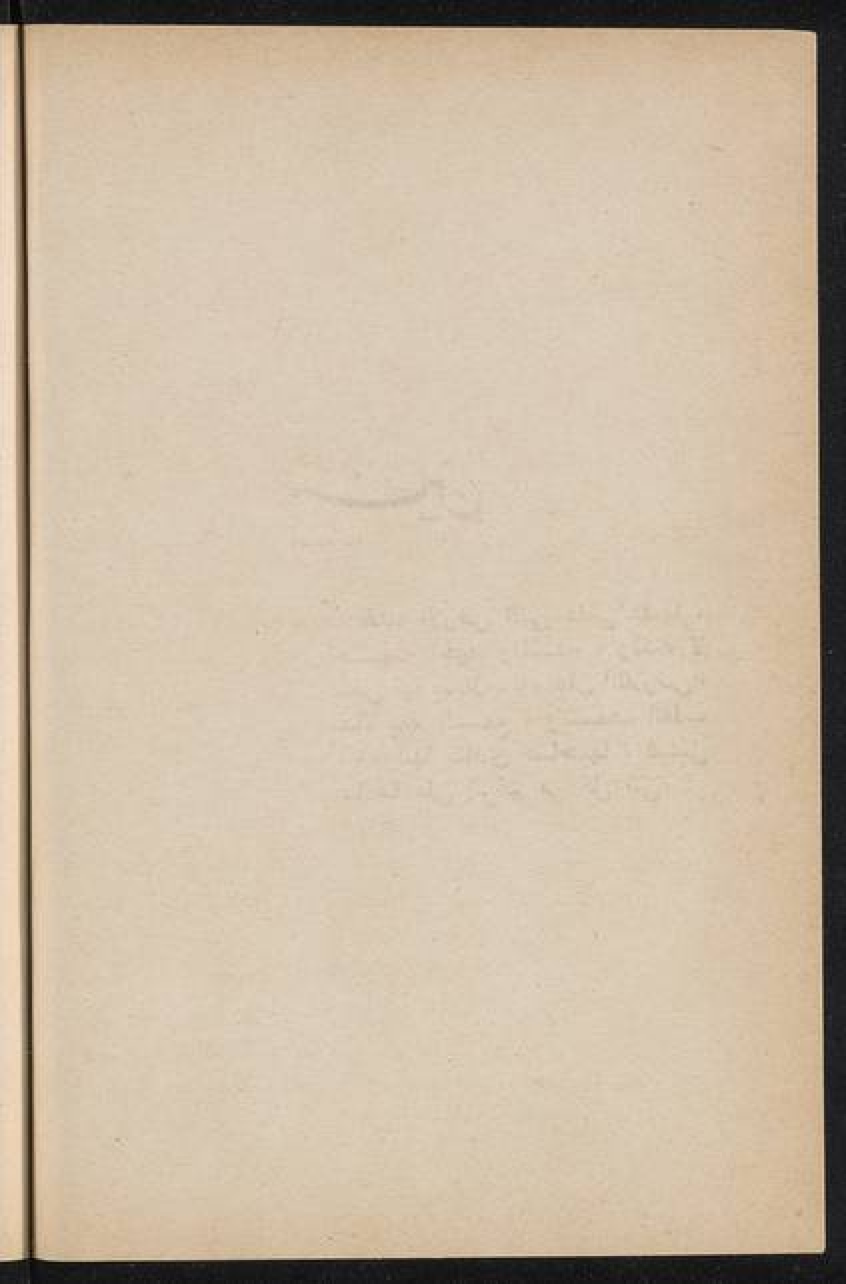
وصمت كلاهما بعض الوقت

واندفع « سليم » بغتة ينشج ، مرتميا على صدر صديقه كما ينشج الطفل الصغير !



حنين

هذه الارض التى عاش عليها ،
جشمته الجهد والمشقة ، ولكنه لا
يبغى بها بديلا ... فان «للارض»
نداء يملأ السمع ، ويشغف القلب
... انها تنادى صاحبها ، فيلبى
نداءها على الرغم من كل شيء !



كان « السيد افندى كساب » ناظرا لضيعة الشياخات ولد فيها من اب فلاح ونشأ فى الحقل منذ نعومة اظفاره ، لا يعرف فى الدنيا الا مهنة الفلاحة ، وقد بدأ حياته رئيسا للزراع ، واظهر براعة فائقة ونشاطا فى العمل الذى وكل اليه ، فرقى الى وظيفة خازن ، ثم الى معاون ، فناظر . وهذا اقصى ما يطمح اليه فلاح . وكان أمينا فطنا ، له حافظة من خوارق الطبيعة ، فاستطاع أن يدبر شئون الضيعة كامهر متعلم . ظل طول حياته فلاحا قلبا وقالبا. حسبك ان تجالسه برهة تصغى الى رنين صوته الممتلىء وتنظر الى عينيه البراقتين ليتراءى لك الريف باسره ، الريف العظيم ، بشمسه الوهاجة ، وظلاله الوارفة ، بهوائه اللافح ، ونسيمه الوديع ، بغدرانه الهادئة ، وسواقيه النواحة ، بخوار بهائمه ، واغانى فلاحيه .. وكانت له دار متواضعة ليست اكثر اتساعا ولا ارفع شأنا من دور الفلاحين ، سكنها ابوه من قبل ، ونشأ هو فيها وترعرع ، وشب فيها أولاده ، فلم يشأ ان يغيرها ، وعاش فيها كأنه فى قصر رحب

وكان يتقاضى مرتبا لا يزيد على خمسة جنيهات ، فما كان اعظمه من مرتب ! فى اى شىء يصرفه ؟ كل شىء عنده : الجاموسة ترتع لا تكلفه من شىء ، والطيور تضيق بها الدار ، وحديقته الصغيرة التى بجوار الترعة تمده بكل

ما يطلب من نبات طيب لذيذ . وقد مات بعض أطفاله ، ولحقت بهم زوجته ، فلم يتغير طبعه ، ولم تهن عزيمته . فهو رجل البشر والعمل . وهذه الأرض المتسعة العظيمة كان ينظر اليها كأنها أرضه ، وهذه الماشية التى تملأ الحظائر ، وتغطى المراعى ، كان يعدها ملك يده ، بل انه ليضمر لها حب الآباء للأبناء ! كان يمضى اليوم كله متنقلا فى الحقل يراقب الفلاحين وهم يحرثون ويزرعون ، وربما تناول المحراث من احدهم وجعل يحرث فى اهتمام ، وعينه تلمع ، وصدره يعلو ويهبط . أو يمسك بالفأس يضرب بها الأرض فى قوة وعزم ، ثم يرفع راسه ويتلفت حوله وهو يقول :

ـ ماذا رايتم يا اولاد ؟ لقد كانت ارضا صلبة ، ولكنها وجدت من هو اصلب منها ! . .

ثم يبادل الفلاحين النكات المرحة ، ويندفع مقهقها فى سذاجة الاطفال . اما اذا راى تهاونا من احد فانه ينقلب جبارا ينشر الرعب فى القلوب ، وكيف يقبل تهاونا فى العمل ، والعمل روحه الذى يستمد منه الحياة ؟

واذا ما حان وقت الغذاء جاءوا له بالخبز الرحراح[1] والبصل وخثارة الجبن[2] اسوة بجمهور الفلاحين ، فيجلس معهم فى حلقة واحدة يأكل ويتحدث كأنه فرد منهم . ولا يكاد الطعام ينتهى حتى يقوم « كساب افندى » منتصبا يصرخ باعلى صوته قائلا :

---

(١) المرحرح (٢) المش

ـ هيا الى العمل يا أولاد !

ويستانف الفلاحون شغلهم ، يعملون عمل الجبابرة ، وصوت الرجل يدوى بينهم كانه الرعد

وعند الغروب يعود « كـساب افنـــدى » الى الضيعة ووجهه يفيض بشرا ورضا ، يجفف عرقه المتصبب من جبينه بكم ردائه ، ويذهب من فوره الى حظيرة المواشى . هناك يجد البهائم متراصة امام معالفها ورءوسها محنية تاكل فى شره ، لا تسمع منها غير جرش وقضم وانفاس ترددها بين الحين والحين . يدخل الرجـل فاذا برءوس المواشى قد ارتفعت عن المعالف ، وجعلت تنظر اليه بعيون مشرقة مرحبة وهى ما زالت تلوك فى فمها ما بقى فيه من العلف ، وتمسح بالسنتها انوفها المصقولة فتزيدها التماعا ، كانها تريد ان تظهر امامه بالمظهر اللائق به . وبغتة يدوى صوت أحدها فى صراخ مسترسل ، وهو ناشر اذنيه فى اهتمام ، ويحد بصره فى الرجل . ولا تمضى لحظة حتى تتجاوب الحظيرة كلها باصوات هذه البهائم الساذجة الطيبة القلب ، وقد اندفعت تتصايح فى تحمس شديد ، يحاول كل منها ان يظهر على رفقته ، ويكسب دونها عطف مولاه .. ويصيح « كساب افندى » بصوته الجهورى :

ـ ما هذه الضوضاء ؟!

فتسكت البهائم على الأثر ، الا حمارا لم يكن بعد قد اكمل مقطوعته فى الترحيب ، فيرميه « كساب » بنظرة حادة وهو يقول :

ـ حقا انك حمار !

ويعيد الحمار راسه الى المعلف وهو يهر مفمفما ، ويمر « كساب افندى » بالبهائم واحدا واحدا ، وهو يلاطف ظهر هـذا ويداعب راس ذلك . ويماجن آخر بنكتة لا يفهمها الا هو ورعيته .. يوزع عطفه بالسوية بينها ، لا يخص احدا منها بامتياز . واذا احس أنه زاد فى ملاطفته لاحدها اسرع مبتعدا عنه وهو يختلس النظر الى البقية ، خشية ان يكون قد اثار فيها شيئا من الغيرة !

واذا ما عاد الى داره هوى على المصطبة منهوك القوى ، وهو مبتسم الثغر . وتأتى له بالطعام « ام الهنا » مربيته ومربية اولاده ، خادمته العجوز الوحيـــــدة . وينطلق « كساب أفندى » يقص عليها فى اسهاب ما فعله فى يومه ، ويستفتيها فى منازعاته مع الفلاحين ، ويصغى لقضائها فى رضا وقبول . وبعد أن ينتهى من طعامه يقصد الى الفرن فيعتليه متمددا ، ويستغرق برهة فى تفكير عميق ، يعرض فيه بعض مناظر من ماضى حياته ، وتتراءى له الدار وهى تزخر باطفاله وتتجاوب بصيحاتهم ، ثم يراهم وقد كبروا حتى صارت البنات عرائس . ثم كيف تزوجن واستقررن فى ديار ازواجهن ، وكيف غدا ابنه الوحيد « عبد الغنى » طبيبا نابها كبير الاسم ، يعيش فى قصره المنيف «بالقاهرة» ثم كيف بقى هو و « ام الهنا » وحيدين فى هذه الدار .. ويسمع صوتها وهى جالسة على الارض بالقرب من راسه، فيطلب منها ان تقص عليه طرائف من قصص طفولته ، وتبدا المراة تحكى ، و « كساب » يصغى ، والابتسامة دائما تتألق على وجهه ، يستقبل بها احلامه العذبة

غير ان الدنيا تنكرت « لكساب » فجاة ، فحل به مرض عضال ، فنقله ولده الى « القاهرة » واسكنه معه ، واحاطه بعنايته ورعايته حتى ابل . وعاش « كساب » فى كنف ولده مكرما معزز الجانب مغمورا بمناعم الحياة . ولكنه ظل دائما كما كان ، رجل الريف الصميم بجلبابه وعباءته . ولم يعرف من « القاهرة » كلها الا بعض المساجد واضرحة اهل البيت يذهب اليها ليتعبد . وكذلك قهوة « الحاج ابراهيم » القريبة من مسكنه حيث يقضى الوقت فى ركن منعزل يدخن الطباق فى القصبة[1] ، ويستسلم لأحلام هادئة

دخل « كساب » يوما القهوة ، وكان ملتحفا عباءته القديمة يتقى بها هجمات الرياح الباردة . وقصد الى ركنه المالوف ، فلمحه صبى القهوة ، واتى له على الفور بالقصبة وبالقهوة ، ووضعهما امامه بعناية كبيرة ، وامسك « كساب افندى » بالقصبة وادنى مبسمها من فمه فى حركة آلية ، واخذ يدخن وعيناه تنظران نظرا تائها

وسمع صوت « الحاج ابراهيم » صاحب القهوة وهو يتحدث الى نفسه . وبعد قليل ظهر راسه الأشيب بلحيته المهندمة ، واخذ يدور فى المكان بعينيه الكابيتى اللمعة . وما ان وقع بصره على « كساب » حتى اشرق وجهه بابتسامة خفيفة ، وخرج من مخبئه يسير فى تباطؤ كانه يمشى على ارض ملساء يخشى ان ينزلق . واقبل عليه وحياه مرحبا به ، فرد عليه « كساب » التحية فاتر

---

(١) نوع من النارجيلة يستعمل فى القهوات البلدية ، ويعرف بالجوزة

اللهجة ، وتناول الرجل كرسيا ، وجلس عليـــه بجوار صديقه . وبعد ان تمخط وبصق ، التفت اليه وقال وهو يحدق فيه :

ــ كفى الله الشر ! مالك ؟

فرفع « كـاب افندى » حاجبـــه الأيمن ثم خفضه ، وجذب نفسا طويلا من القصبة ، ونفخ دخانها على مهل .. واخيرا قال :

ــ انا متضايق ! ..

ــ لماذا ؟

ــ متضايق والسلام !

وجذب نفسا آخر ، والتفت الى « الحاج ابراهيم » ، وضغط يده قائلا :

ــ مرت على الآن اربع ليال و « البنهاوى » يتراءى لى فى المنام !

فهمهم « الحاج ابراهيم » وقال :

ــ البنهاوى ؟!

واتسعت عينا « كـاب افندى » وانبعث من حدقتيهما بريق قوى ، وامتلأ صوته بحيوية جديدة ، وهو يقول :

ــ اجل « البنهاوى » يا « حاج ابراهيم » ! لقد تركته عجلا صغيرا ما زال شعر الطفولة عالقا بظهره . وكنت امنى نفسى ان يشب فى كنفى

ونكس « كـاب » راسه ، ولزم الصمت برهة ، ثم رفعه وقال فى صوت اشبه بالهمس كأنه يناجى نفسه :

ــ أجل « البنهاوى » ... « البنهاوى » الذى حضرت

بنفسى ولادته . اتصدق ؟! لقد قضيت الساعات وانا فى الزريبة اعنى بامه . وكان الجو باردا والمطر ينهمر ، ثم تلقيته بيدى : تلقيته قطعة حمراء ملساء كالحرير ، ونظرت اليه فوجدته يحدق فى بعينيه البراقتين اللتين تشبهان فصوص الماس .. هذا هو « البنهاوى » الذى كنت احضر اوقات رضاعه ، واهيىء له مرقده ، واقضى وقتا هنيئا اراقبه وهو يقفز فى صحن الدار قفزاته المضحكة ..

ومرت فترة صمت ، ثم عاد « كساب » الى الكلام فقال :

ـ لقد كنت سعيدا فى بلدتى ، فلماذا أتوا بى الى هنا ؟ طالما جاءنى ابنى هناك ، والح على ان إعتزل العمل ، وان اسكن معه فى «مصر» حيث الراحة والهناء ، فهل سمعنى اتالم من عملى او اشكو من حياتى ؟ كان يعيب على ان ابقى فى هذه الوظيفة ، التى كان ينعتها بالوضيعة ، وان امد يدى لآخذ مرتبا لا يصح له أن يعطيه سائق سيارته . يا لانكار الجميل ! انسى اننى بهذا المرتب الوضيع استطعت ان انفق عليه حتى وصل الى هذا المنصب الذى يحسد عليه ؟! ..

ونكس « كساب افندى » راسه فى استسلام ، وجعل ينظر الى الارض والحزن باد عليه ، وغمغم قائلا :

ـ ولكن المرض ، المرض هو الذى غلبنى على أمرى ، هو الذى هزمنى وحطمنى . يالله ! لم اكن أعرف المرض فى حياتى ! سبعون عاما قضيتها وانا أهزأ بهذا الدعى الثقيل حتى شعرت به يهاجمنى على حين غرة ، وجاهدت

ما استطعت ان اجاهد لأتخلص من وطأته ، ولكن لم تجد محاولتى شيئا. لقد كنت احس به يأكل من لحمى، ويشرب من دمى ، وينـــال من قوتى ، حتى ايقنت انى هالك . وحضر ابنى فوجدنى اكاد الفظ نفسى الاخير ، فحتم نقلى الى « مصر » ، فلم اعارض . لقـد كنت فى ذلك الحين كالطفل الصغير المسلوب الارادة . وحملونى الى المحطـة والناس من حولى يودعوننى ، ويطلبون لى الشـفاء .. وكنت التفت حولى فى مشقة املأ عينى من منظر الحقول .. وسمعت بغتة خوارا من بعيد ، فشعرت كأن سكينا تحز فى قلبى . اهو خوار « البنهاوى » يهتف بى ويسأل عنى ؟! ومسحت دمعتى بكفى ..

... وفتحت عينى يوما ، فوجدت نفسى على سرير فى حجرة فخمة ، وبجانب راسى امراة تلبس البياض كأنها عروس كبيرة من عرائس الحلوى فى موالد الاولياء .. ومرت الايام ، واستطعت ان انهض من فراشى ، وجاء ابنى يهنئنى ويقبلنى ..

وعشت فى هذه الحجرة الفخمة اياما اخرى .. ياالله ! لم كل هذا ؟! خدم واتباع ، ونور يخطف البصر ، وموقد كهربى يبث الحرارة فى كل مكان و .. و .. ولكننى كنت انظر حولى كالغريب واتنهد ، ثم أطلق العنان لأفكارى ، اين دارى الريفية ؟! اين فرنى اتمدد عليه ؟! واين « ام الهنا » تخدمنى ؟

ثم استطعت ان افارق الحجرة واخرج الى الحديقة . لقد كانت فسيحة جميلة التنسيق . ولكن اين هى من

حقلى؟! وهذا البستانى الأبله الذى يقوم على شأن الحديقة ، لم نستطع ان نتفاهم معا على شىء . فكأننا اجنبيان لا يعرف كل منا لسان الآخر . كنت اسخر منه كلما رأيته ، فالتزم ان يتجنبنى ، حتى التحية لم يعد يبادلنى اياها !

وترادفت الأيام وانا لا عمل لى ، اقضى نهارى جالسا امام البيت اتثاءب متعجبا من بطء الزمن . كان يخيل لى ان اليوم لن ينتهى، واننى ساقضى السنين لا اغير جلستى. وكان كثير من الزوار يقبلون على يمطروننى وابلا من الاسئلة، فاذا لم يحظوا منى برد سمعتهم يتهامسون : ما اغباه من بواب !

لا شىء يعوزنى فى هذا المنزل الرحيب ، ولكننى مع ذلك احس اننى يعوزنى كل شىء ، فاقضى يومى صامتا اتصفح همومى !

▭

واستغرق « كساب افندى » فى الصمت ، ثم ادنى مقعده من مقعد « الحاج ابراهيم » ، وقال فى صوت خافض ، وهو ينظر اليه نظر الحالم :

ـ لقد حدث لى امس حادث غريب ، اريد ان افضى به اليك ، علك تستطيع ان تفسره لى : بعد ان تناولت العشاء قصدت الى حجرتى ، وجلست على المقعد ذى المسندين ، وكنت تعبا ، فارحت راسى على ظهره . ولكننى لم اطبق جفنى ، اؤكد لك انهما كانا مرفوعين . ومضى وقت لا اعرف مداه وانا اعرض فى مخيلتى شتى

المناظر بين قديمة وحديثة . وفيما انا على هـــذه الحال سمعت صوتا من بعيد يغنى انشودة ريفية قديمة ، كثيرا ما ترنمت بها فى شبابى ، فاصغيت اليها فى اقبال ، وشعرت بقلبى يملؤه ذلك النور القديم ، واحسست دفئا طيبا يشمل جسدى ، وامتلأ انفى برائحة البرسيم الطيبة .. وكان الغناء يعلو ويقترب رويدا ، ولكن من اية جهة ؟ ومن هو الذى ينشد ، افرد ام جمع ؟ وبعـــد حين اصبحت الحجرة تتجاوب بتلك الأنشودة ، وشعرت بنشوة عظيمة ، وتمثل لخاطرى اننى ارى اشباحا تروح وتغدو امامى ، وانعمت النظر فيها ، فاذا بهم اصحابى الفلاحون وزوجاتهم ، كلهم فى حللهم الجديدة التى يلبسونها فى يوم العيد ، كلهم مبتهجون ينظرون الى بعيونهم المكحلة .. ثم رأيتهـــم يختفون . كانت تطويهم جدران الحجرة ، واخذ الغنـــاء يتضاءل رويدا رويدا حتى اصبح ضـــعيفا لا تكاد اذنى تعيه ، ثم عم الحجرة الصمت ، وقمت من مقعـــدى وانا اناديهم صارخا ملحا .. لقد كنت اشعر ان قلبى يتمزق ، وراسى يحترق .. وهرول الى ابنى ، وعنى بامرى ، فارقدنى على السرير واشربنى دواء سرى فى على اثره فتور ورغبة فى النوم ..

▭

فى مساء اليوم التالى ، خرج من منزل الطبيب رجل يسير فى حذر وتلصص ، يلبس الملابس الريفيـــة ، وهو ملثم الوجه بمطرف من الصوف ، وكانت وجهته محطـــة السكة الحديدية ، ولما وصل اليها اخذ تذكرة فى الدرجة

الثالثة الى بلدته « الشياخات » . واخذ مكانه فى العربة ، وهو يلتفت يمنة ويسرة فى شىء من الذعر ، وما كاد القطار يتحرك حتى انفرجت اسارير وجهه . وغمره البشر والاطمئنان ، وغمغم بكلمات حمدٍ وشكر لله

وسار القطار يشق طريقه فى الظلام ملولا ، يصعد زفراته المتقطعة . لقد كان هو وركابه كسالى متعبين ، يغمرهم خمول ثقيل ، ما عدا هذا الرجل الريفى المشرق الوجه ، فقد كان يقظا كثير الحركة ، يعجب لبطء القطار ويستعجله ، وكلما وقف القطار فى محطة اطل من النافذة متطلعا ، وجعل يرسل بصره حوله مدققا فاحصا ثم يعود الى ما كان عليه ، وقد اخذ صبره ينفد .. واخيرا ظهرت « الشياخات » يلفها ظلام كثيف ، ويرفرف عليها صمت شامل ، فعرفها الرجل دون ان يراها ، عرفها بشعوره كما يعرف الحيوان موطنه بغريزته ، واحس رجفة تتمشى فيه ، وتطلع من النافذة يريد ان يمزق بنظره الحاد حجاب الليل الأسود الذى يغشى كل شىء . راى ابراج الحمام القائمة عند مدخل البلدة ، شاهد الجامع المتهالك بعضه على بعض ضعفا وهرما ، وهذه اشجار التوت الخمس الشامخة بفروعها فى الجرن ، تلك التى طالما تفيأ ظلالها الوارفة واستمرأ ثمرها اللذيذ .. وهب عليه ذلك النسيم الرطب ذو الرائحة الخاصة ، النسيم الذى صحبه فى مدارج حياته كلها ، والذى يستطيع ان يميزه بين الف نسيم .. وقف القطار ونزل الرجل يقفز منه كانه ابن عشرين ، وترك المحطة عجلا واتجه فى خطا فسيحة نحو

الضيعة . كان الطريق خاليا الا من بعض الخفراء اخذتهم سنة من النوم ، وهم مجتمعون امام خص من اخصاصهم ، وقبالتهم بقية من نار كانوا يستدفئون بها ، عرفهم الرجل واحدا واحدا ، ووقف برهة يتاملهم ، وقد ساوره شيء من الضيق ، واراد ان يصيح فيهم صيحته فى سالف ايامه ينبههم الى واجبهم . ولكن سرعان ما علت شفتيه ابتسامة سانحة ، وتابع سيره الحثيث نحو داره ، حتى اذا ما وصل اليها عالج الباب حتى فتحه ، ودخل الدار فى سكون وهو يطوف بنظره فيما حوله ، ويشم الهواء فى لذة مسكرة ، واحس الدفء المنبعث من الفرن ، وتشبع انفه برائحة الخبيز ، ولمح عباءته القديمة معلقة على الحائط كانها ترحب بقدومه ، و « ام الهنا » مكورة على فراشها بالقرب من الفرن تتنفس تنفسها الهادىء البطىء . كل شيء كما هو لم يتغير ، كل شيء معد لاستقباله : العباءة موجودة ، والفرن دافىء ، والارغفة الرحراحة الشهية تملأ المشنة ، و « ام الهنا » نائمة تنتظر عودته من الحقل ، احقا كان فى « القاهرة » ؟ اغاب عن وطنه ستة اشهر كاملة ؟

وتحركت « ام الهنا » فى فراشها وفتحت عينيها ، فما ان وقع بصرها عليه حتى قامت فزعة وهى تقول :

ـ من ؟ من انت ؟!

وكادت تخرج من حلقها صرخة استغاثة ، ولكن الرجل تقدم نحوها بطىء الخطا ، وهو يقول ضاحكا :

ـ انسيتنى يا « ام الهنا » ؟

ووقفت المراة تدعك عينيها فى دهشـــة وتردد . ثم اندفعت بكل قوتها نحوه ، وجعلت تقبل يده ، والدمع يطفر من عينيها ، وقالت فى صوت متهدج :

ــ سيدى ! سيدى !

وجلس « كساب » على سطح الفرن ، وقعــدت المراة على الارض بالقرب من قدميه ، وسألته قائلة :

ــ لماذا لم تخبرنا بقدومك ؟

ــ وهل كنت اعلم انا بموعد سفرى ؟!

واخذ يسألها عن اشياء مما يتصـــــل بالضيعة : عن « البنهاوى » ورفاقه ، عن الارض وما انتجت من محصول، عن همة الفلاحين فى العمل ..

كان يصغى طويلا ولا يتكلم الا قليـــلا . وكثر تثاؤبه وتمطيه ، وقامت به رغبة فى النوم ..

ونهضت « ام الهنا » متسللة الى خارج الدار ، وهى لا تستطيع كتم ذلك السر العظيم فى صدرها . ذهبت الى جارتها تزف اليها هذه البشرى

وبعد قليل سمع « كساب » هرجا ومرجا واصــواتا مختلفة ، مصحوبة بأغاريد النساء . وكان مسندا ظهره الى الحائط وهو فى شبه غفوة خفيفة ، ففتح عينيـــه وابتسم

وتدفق الناس من الباب يحيون زعيمهم الكبير ، فقام الى لقائهم ، وبسط لهم ذراعيه يحتضنهم ويحتضنونه ، ويقبلهم ويقبلونه . ثم صاح « بأم الهنا » قائلا : القهوة حالا للضيوف !

وجلسوا جميعا على الارض ، و «كساب» معهم يتبادلون فى اختلاط عبارات الترحيب والايناس

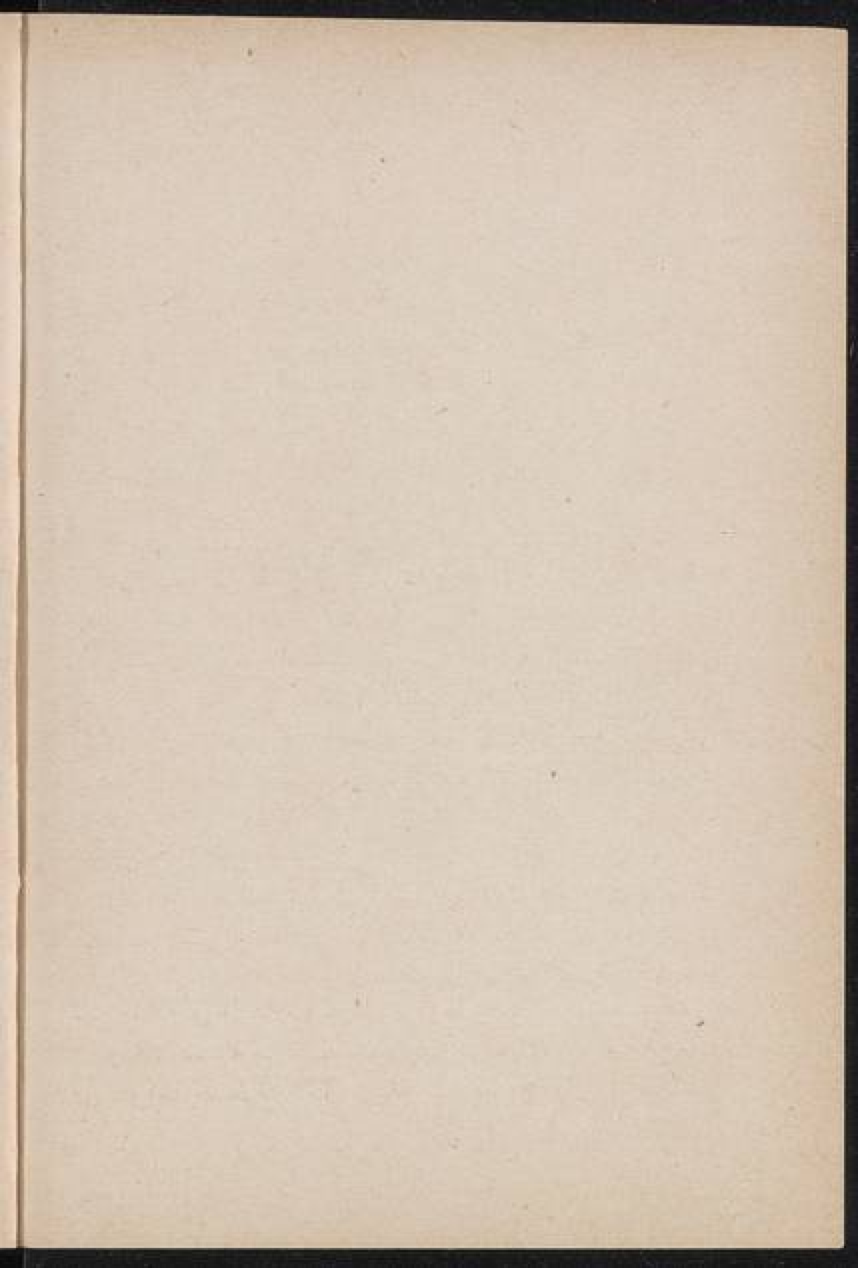
والح على « كساب » التعب وعاد النوم يغزوه فى عناد يالله ! انه يطبق اجفانه ويسند راسه الى كتف جاره .. وشعر بايد تحمله الى سطح الفرن ، وتمدده عليه

ثم لم يلبث ان انساقت به الاحلام كل مساق !! ..



جاء الشتاء

هذه النفس البشرية فى أعماقها
حين تهفو الى الخير ، تعبث بها
الاهــواء ، فتــأبى الا ان يكون
احسانها .. على حساب الغير !



الشتاء على الأبواب ...

انه ليشعر الناس بمقدمه المخوف ، وانه ليقدم دائما فى موكب من ضجة واصطخاب . أليس هو موسم العواصف والزوابع ، موسم الرعود والبروق ، فكيف ترجو اليه ان يقبل عليك فى سكينة وهدوء ؟

الشتاء على الأبواب ...

لا خيرة للناس فى استقباله ، فليس لهارب منه نجاء ، سيان عنده من هش له ، ورحب به ، ومن نقم عليه ، وتحرز منه

كانت اسرة « العنتيل » ممن يمقتون الشتاء ، ابغض شىء اليها هذا الزائر البارد الطلعة ، الثقيل الوطأة ، هذا الذى يعلن قدومه فى هجمة غاشمة ، لا يأتى البيوت من ابوابها فى تحشم واستحياء ، ولكن يقتحم النوافذ والمسارب والشقوق فى اجتراء ، فيزلزل السماء والارض ، ويقلب الكون راسا على عقب

واسرة « العنتيل » تأوى الى بيت من تلك البيوت المهشمة التى عاثت فيها تصاريف الزمان ، ينزوى فى اطراف حى « القلعة » ، كأنه جندى اثخنته الجراح فتخلف عن رفاقه فى الميدان ، وبقى وحده يعانى سكرات الموت

وذات عشية من شهر نوفمبر ، راع الاسرة ان السقف من فوقها يضطرب كأنه يوشك ان يخر ، وان الارض من

تحتها تميد كأنها توشك ان تنخسف ، وان مصاريع النوافذ تتصادم وتتضارب

فى هذه الليلة ، علمت الاسرة على يقين ان وافدالشتاءقد حل ، وانها تستقبل مكاره ذلك الضيف الثقيل ، فعليها ان تتجهز له ، وان تروض نفسها على مصاحبته ، حتى يرحل عنها بعد اشهر معلومات . . .

وهرول « العنتيل » الى صوان الملابس ، فجعل يقلب فى محتوياته ، لكى يتفقد معطفه القديم الذى لزمه اشتية متوالية . . . حقا تدسست الى هذا المعطف عوامل الرثاثة والبلى ، ولكنه استطاع ان يسبغ الدفء على صاحبه ، وان يحميه خلال الشتاء من معقبات البرد القارس . . . وكفاه !

اطال « العنتيل » بحثه فى اركان الصوان وزواياه ، فلم يجد للمعطف من اثر ، فاقبل على زوجه يسالها عنه ، ولكنها ابت أن تنصت له ، اذ كانت بمتاعها هى واولادها فى شغل شاغل ، فتابع الرجل سؤاله فى الحاح واهتياج . فرفعت الزوجة بصرها اليه مدهوشة تقول :

– اى معطف تسالنى عنه ؟ المعطف المهلهل الذى علمت منك غير مرة انك زاهد فيه لن ترتديه ، وانك معتزم شراء معطف جديد ؟!

– انى فى حاجة اليه . . . على به

– الست معتزما شراء معطف جديد ؟

– قولى لى : اين أجد معطفى القديم ؟

– لقد جاءنى امس الرجل العجوز المسكين ، ساعى الادارة الذى يعمل تحت امرتك ، فاشفقت عليه من برد

الشتاء ، فدفعت المعطف اليه ، التماسا لدعوة صالحة منه
وفغر « العنتيل » فاه مذهول النظرات ، وكاد الغضب يبلغ به حد الثورة ، لولا ان عاجلته الزوجة بقولها :
ــ انت رجل عطوف القلب ، ولك عنـد الفقراء مآثر ، والألسن تلهج بالثناء عليك ، فهل تبخل على ساع مسكين بذلك المعطف القديم ينجيه من هلاك محقق ؟!
واطرق الرجل يفكر هنيهة ... لقد صدقت زوجه فى وصفها اياه بانه حسن الاحدوثة فى الناس ، وان قلبه فياض بالخير والبر ، ولكن ذلك كله لا يبلغ عنده مبلغ التفريط فى معطفه العتيد ، ذلك الرفيق الكريم الذى لا يعوض ... لا ينكر « العنتيل » انه تحدث يوما فى شان اعتزامه شراء معطف جديد انيق ، يلائم منصبه فى رياسة قلم التسجيل بمصلحة التنظيم . ولكن اين المال الذى ينيله ذلك المطلب المرموق ؟
وهم بان ياخذ على الزوجة سوء تصرفها حين وهبت المعطف ، قبل ان تستاذنه ، فالفى الزوجة تسبق اليـه وهى تقول :
ــ الم يؤكد لك رئيسك انك حاصل على الترقية حتما هذه الايام ؟ سيتيسر لك المال ، فلا تحمل هما لثمن المعطف الجديد
والفى « العنتيل » نفسه يغمغم ولا يبين ...
وفى الصبيحة من غده ، ترك بيته قاصدا مصلحة التنظيم ، كدابه كل يوم ، فما كاد يتخطى عتبة الباب حتى تعاورته الرياح ، فاسرع يتكمش فى اهابه ، ويضم حواشى سترته

اليه ، ورفع بنيقة السترة يحمى عنقه الهزيل المعروق .
ثم جد فى السير ، كأنما يبارى هذه الريح الهبوب . وفى أثناء سيره بنى عزمه على أن يتحدث الى مدير الادارة فى أمر الدرجة المرجوة ، حتى اذا نالها استطاع ان يحصل على معطف جديد يجابه به جبروت الشتاء ، ويزهو بجدته ورونقه على الأقران ...

واقبل على حجرته ، فكان أول من لقيه الساعى العجوز ، ربيب نعمته ، ذلك الذى تلقى من يد الزوجة هبة المعطف العزيز ... وتراءى له الساعى وضاح الجبين يرفل فى معطفه ، لا يبالى عصف الهواء ، وطفق يتقافز حول « العنتيل » مرحبا به ، شاكرا له ، يرفع له يديه بصالح الدعاء ، فرد « العنتيل » تحية الساعى — أو الداعى — فى لهجة طابعها التحفظ والاستعلاء ، وراح يرمق المعطف وهو يلف جسم الرجل العجوز ، كأنه درع سابغة تكفل له الوقاية والامان . ثم انفتل يجلس الى مكتبه ، وهو يسوى بنيقة سترته ، وجعل يبسط قامته ، ويرفع هامته ، يريد أن يبدو فى مظهر شاب رياضى يتحدى عوادى الأجواء

ولبث بعض ساعة فى لمة من اخوانه ، يخوض معهم فى حديث مملول ، حتى علم بمقدم المدير ، فانطلق الى حجرته يحييه تحية الاصباح فى أدب بالغ ، فالفاه يخلع معطفه ، فابتدره يتلقاه عنه ، وحمله فى عناية الى المشجب عن كثب منه ، ثم انعطف يقول :

— كل عام وانتم بخير ... لقد بكر الشتاء هذا العام ، وقد احسنت صنعا يا سيدى المدير بارتداء المعطف

فهمهم المدير يقتضب الحديث :

ــ الحيطة خير

ــ حقا ان الحيطة راس الحكمة ، ولكنها ليست ميسورة لكل راغب

فنظر اليه المدير بمؤخر عينه يقول :

ــ كيف ؟

ــ متى استطاع المرء ان يحتاط كان له ان يفعل ، فاذا لم يقدر ...

وفطن المدير الى أن « العنتيل » يطاوله فى الحديث لحاجة فى نفسه ، فزوى حاجبيه ، وقال له :

ــ كل امرىء يستطيع ان يدبر امره ، جهد طاقته ،وفى حدود ملابساته

وانكفا المدير على مكتبه ، يتشاغل بتقليب ما بين يديه من اوراق ، فتدانى منه « العنتيل » يقول فى نبرات ضارعة :

ــ كيف ندبر أمرنا ونحن على حال من السوء لا نملك معها شيئا من التدبير ؟

فرماه المدير بالنظر الشزر ، وقال له فى ضجر :

ــ لقد رغبت اليك امس فى انجاز الرسائل المعطلة ، فانشط لها اليوم

فشرع « العنتيل » يفرك يديه ، وهو يقول :

ــ عندى كلمة واحدة احب أن ابلغها سيادتك

فقال له :

ــ قلها واوجز

ــ الدرجة ... الدرجة التى وعدتنى بها هذا اوانها ،

فانا فى ضائقة وعسر ، وهذا هو الشتاء قد اقبل ، وما اشد احتياجى الى معطف

— الم يبلغك ان التعليمات تقضى بتاجيل الترقيات ؟ ليس فى مكنتى ان ارشحك للدرجة الآن ...

— وهل ينتظرنى الشتاء حتى تنتهى فترة التأجيل ؟ لا بد لى من معطف ، وانت مستطيع ان تتصرف فى الامر بحنكتك ، حتى انال الدرجة الآن

— مبلغ علمى انك تملك معطفا

فاشاع « العنتيل » ابتسامة شاحبة على فمه ، وقال :

— انه معطف اكل عليه الدهر وشرب

وراح يتصنع الضحك فى تظرف ، وهو يختلس النظر الى المدير ، ولكن الرجل ازداد من قطوب ، وقال له مخشوشن الصوت :

— عليك ان تقنع بمعطفك القديم !

— انه مهلهل يا سيدى ، وما يليق بمثلى فى مكانه من رياسة قلم التسجيل ان يبدو فى اسمال ...

فصاح به المدير :

— انك تنظر الى الدنيا بمنظار عتيق ، فجدد عقليتك ، واعلم اننا الآن فى عصر التقشف والاقتصاد وضغط النفقات لقد ولى عصر البذخ والتفاخر ... لا اسراف بعد اليوم !

فاصفر وجه « العنتيل » ، وتلعثم لسانه وهو يقول :

— بذخ ... تفاخر ... اسراف ... لاشىء من هذا كله !

فجلجل صوت المدير بقوله :

ـ تعود التقشف ... خذ نفسك بضغط النفقات ... الترقيات مؤجلة ... لا تضع وقتك سدى

وادبر « العنتيل » عن مكتب المدير يجرر قدميه ، وهذه الكلمات تطن فى اذنيه : التقشف ... ضغط النفقات ... لا اسراف بعد اليوم !

ولم يكد يخطو* فى البهو بضع خطوات حتى لاح له شبح « عم مؤمن » الساعى العجوز ، وهو فى معطفه السابغ يخب ، والابتهاج على محياه يتلالأ ، فحدجه بنظرة نكراء ، ثم ازور بعينه عنه ، وتابع خطوه على وجهه قتام

وحاول « العنتيل » غير مرة أن يثير عند مدير الادارة حديث الدرجة المنشودة ، عله يحظى بوعد تطمئن به نفسه ، فلم يجد من المدير الا ترديد نصائحه الصاخبة فى شأن التقشف المطلوب ، والنفقات التى يجب ان تضغط ، والاسراف الذى انقضى عهده ، منذ اليوم

فاستياس الرجل ، وتوارى طيف المعطف الجديد من مخيلته ، حتى لم يبق له اثر ، بل انه لم يعد يطمع فى ان يظفر بمعطف اى معطف ، وان كان لبيسا من سوق الاسقاط !

ومن اين له بصيص من الأمل ، وهذا مرتبه الضئيل تبتلعه مطالب البيت فى مطالع الشهر ، ولا يكاد يسد الفاقة فى سائر الايام، فلابد معه من الاقتراض، فلكل شهر دين يضاف الى دين ، وان الديون لتبلغ مبلغا يبعث فى جسم الرجل قشعريرة دونها قشعريرة البرد

لا غرو اذن أن ينتهى الامر بالرجل الى قرار حاسم ، ذلك ان يقضى الشتاء بلا معطف ، وليكن ما يكون !

ولحظ الناس من شأن « العنتيل » انه قد اصبح على حين بغتة داعية من دعاة التقشف وضغط النفقات ، لايفتا يبشر بالدعوة فى كل مكان ، تارة يتغنى بها لسانه فى طرب ، وتارة يتحمس لها ويخاصم عليها فى اهتياج ، ولطالما بح صوته وهو يقول :

— الاسراف ... الاسراف ... انه آفة البلد ... انه علة العلل ... علينا ان نناهضه ولا نتهاون به ... لنتخذ من التقشف سنادا ندعم به حياتنا الاقتصادية التى اخلت بها الجهالة والغباوة والحمق ... اياكم والسرف ... وازنوا بين الدخل والخرج ... اضغطوا النفقات !

بمثل هذه الجمل والعبارات ، كان يتحدث الى اقرانه فى العمل ، وجلسائه فى المشرب ، واهله فى البيت ... فذاع امره وشاع ، وحلا لبعض الظرفاء ان يلقبه «بطل التقشف» فعرف بهذا اللقب ، وتسامع به الناس ، فتناقلته الافواه فى تهكم كظيم !

وعلم مدير الادارة بما صار اليه امر « العنتيل » فرضى عنه ، واغراه بالمزيد ، اذ كان له فى ذلك صارف عن اقلاقه باطلاق الدرجات وصرف العلاوات ... وهذا فضل عظيم!

وتعمق «العنتيل» فى دعوة التقشف وضغط المصروفات، فاذا هى فى راسه فلسفة شاملة يطبع بها آراءه فى الحياة ، ونظراته الى النـــاس ، تراه فى مجرى حـديثه الدارج الى الرفاق يتطرق الى موضوعات اجتماعية نفســية ، يطبق عليها قواعده الجـديدة ، فان تحـدث مثلا فى « فلسفة العادة » اسهب يقول :

ــ يسير علينا ان نكتسب الحميد من العادات ، وان نبرأ من كل عادة سيئة ممقوتة ، متى كانت لنا ارادة ... ارادة صلبة ... ارادة من حديد ... هاكم مثلا ، لا اتصيده لكم من بعيد ، فانى انا « المثل » ! ... لقد اعتزمت هذا العام ان اعود جسمى احتمال ما ياتى به الجو من اهوية وعواصف ، فمن العار ان يستعبدنا هـذا الشتاء ، وان يريدنا على ارتداء اكسية نحن عنها فى غناء ... لقد تمردت على البرد ، ورفعت فى وجهه راية العصيان ، وابيت ان ارتدى معطفا كما كنت افعل ، وهانذا اصرع الشتاء فى عزم ومضاء ... من شاء اكتساب عادة او انتزاع عادة ، فليكن سلاحه قوة الارادة !

وما ان يبلغ الرجل من خطابه هذا المبلغ ، وهو فى فورة من حمية وتحمس ، حتى يشتد به العطاس ، ويحتد عليه السعال ، فاذا جلساؤه يتبادلون النظرات ، وقد تراءت على افواههم بسمات السخرية ، وتسابقت على السنتهم كلمات التنادر

اما علاقة « العنتيل » بالساعى العجوز « عم مؤمن » ذلك الذى نال المعطف ونعم به ، فكانت علاقة يشوبها شىء من الغموض والانقباض ، على الرغم من مظاهر الالفة التى تبدو للعيان فى كثير من الأحيان

ان الساعى ليذكر « للعنتيل » جميل صنعه به ، فهو يكن له التكريم والاكبار ، ويحرص على خدمته ما وسعه ان يحرص ، ولكنه لا يملك الا ان يستريب منـــه ببعض

تصرفات قاسية لم يكن يعهدها فيما سلف من ايام

ان « العنتيل » يلقاه فى هشاشة وبشاشة ، ويمتدح اخلاصه وولاءه ، بيد انه ينتهز بعض الفرص ، فيغمزه غمزات يألم لها اشد الألم ، وهو يكيل له فى الحين بعد الحين الوانا من النقد والتهكم تثير عليه من حوله؛فيسخرون منه او يشمتون به ، او يصبون عليه جام اللوم والتثريب

ولا ينسى « عم مؤمن » انه كان يوما متخذا جلسة راحة واستجمام ، وقد اخرج علبة لفائف التبغ ، يبغى ان يدخن واحدة ، فاذا « العنتيل » يهل عليه فى جمع من الرفاق ، وبين يديهم أوراق يريدون عرضها على المدير ، فاستوقفهم « العنتيل » امام الساعى العجوز ، فاضطرب الرجل فى جلسته ، فنهض يلم شعثه ، وهم بان يوارى علبة اللفائف فى جيبه ، فما كان من « العنتيل » الا ان عاجله ينتزع العلبة من يده ، وهو يصيح فى لهجة مريرة ، ظاهرها مزح ومفاكهة :

ـ ماشاء الله كان ... ماشاء الله كان ... علبة لفائف «الجمل» ... اللفائف الفاخرة ... يالحظك العظيم !

فجعل الساعى يلغو ولا يكاد يبين ، ثم حاول ان يتضاحك وهو يقول :

ـ حقا ماأعظمه من حظ ... ولكن الا تعلم ياسيدى ...

فقاطعه « العنتيل » متعاليا بضحكته العابثة :

ـ انت تؤثر الدخان الامريكانى ، لانك ساع امريكانى ... لا نظير لك ... بكم اشتريت هذه العلبة ؟!

واعتدل « عم مؤمن » فى وقفته،وهو يجاهد فى مسايرة هذه المناكفة الثقيلة بقوله :

ـ ليست هذه يا سيدى علبة اشتريتها ... انها حطام علبة ... صادفتها ملقاة فى زاوية من حجرة المدير ... لا تحوى الا لفافتين محطمتين مثلى !

فاخذ « العنتيل » بيد الساعى ، وهو يقول :

ـ لاتحسبنا ننخدع بهذا الكلام..انت رجل لكعقلية رجعية سيئة ، فلتقوم عقليتك ، وانى لوجه الله انصح لك . مالك ولتقاليد السادة المترفين ؟!

ثم طفق يربت ظهره ، وهو يقول :

ـ ارجع على نفسك بما تنفقه فى سبيل التدخين ... اشتر ما ينفعك ... ذلك خير واولى

واستانف « العنتيل » سيره مع الرفاق ، وهم يتنادرون على الساعى العجوز المسرف الذى يابى الا ان يتعاطى الفاخر من الدخان ... وظل الساعى ماثلا فى وقفته ، يحدق الى « العنتيل » ورفاقه بعين تضطرم ، ثم قذف بعلبة اللفائف فى عرض البهو ، وهو يبرطم ويزمجر

ولا ينسى كذلك « عم مؤمن » انه كان مرة يقضم من شطيرة ضئيلة يسد بها جوعته ، والوقت ضحى ، والحركة على اشدها فى مكاتب الموظفين ، ففجاه « العنتيل » وهو ياكل ، وحدجه بنظرة شزراء ، وقال له :

ـ سبحان الله ... انت دائما لا يفرغ لك طعام ... ما رايتك الا مشغول الأضراس بشىء تاكله !

فاسرع الساعى يدرا التهمة عن نفسه بقوله :

ـ اقسم لك ياسيدى انى خرجت من الدار دون ان اصيب فطورى

فلاحقه « العنتيل » محنقا يقول :

ـ وماحاجتك الى الفطور فى الدار ، وفى مقدورك ان تخرج لتتناوله فى « جروبى » او «سميراميس» او ما شئت من مطاعم العظماء ؟! ... يا ناس ، جانبوا الجشع ... اقمعوا شهواتكم ... اين التقشف ؟

فتلاحق السعاة يسمعون حديث « العنتيل » فالتفت اليهم يقول :

ـ الدنيا كلها تسير فى منحى ، و « عم مؤمن » ساعى الادارة يسير فى منحى وحده !

ومضى منتفشا يترنح فى مشيته ، والساعى يشيعه بغمغمة ثائرة تحتبس بين شدقيه ...

وتكررت امثال هذا المشهد العصيب ، والساعى العجوز فى دهشة وحيرة ، يعجب لما يجبهه به « العنتيل » من مناكدة وعنت ، ويرجو ان يرجع الرجل الى سابق بره به ، واحسانه اليه

واستمرت الحال على هذا النحو ... كلما تعالت ولولة الرياح ، واشتدت صولة الشتاء، ازدادت حماسة «العنتيل» فى الدعوة الى التقشف وضغط المصروفات ، وتوهجت بطولته فى النهى عن البذخ والترف ... وتبع ذلك كله انتهاز كل فرصة للتهجم على « عم مؤمن » واقتفاء عثراته،

والانحاء عليه باللوم والتقريع ، واتهامه بانه مسرف متلاف

وتداعى الناس الى « اسبوع معونة الشتاء » وتنادوا بالاقبال عليه والبذل له ، واذن بالمسير فى طول البلاد وعرضها « قطار الرحمة » حافلا بالامتعة والاكسية يوزعها على المعوزين والعجزة ، وتطايرت اخبار مواكب المعونة تجول فى الأحياء ، وتخترق المسالك والدروب ، تجمع من البررة الاسخياء ما فضل عندهم من اثواب واشياء ، لترجع بها على المحرومين والعفاة

وجلجل صوت « العنتيل » فى مصلحة التنظيم يحث الرفاق على التصدق ، مذكرا بحق السائل والمحروم ، مشيدا بما يلقاه المحسن عند الله من مثوبة وجزاء

وحل اليوم المشهود ، ودخل « موكب المعونة » دار المصلحة ، ليتلقى عطايا الخيرين من الوان المتاع ، واخذ الموكب يتنقل بين الحجر والمكاتب ، محوطا بالحشد الزاخر، ومن حواليه صياح التهلل والتحمس والترحاب

ومضى الموكب يجتاز البهو الى الحجرة التى تضم « العنتيل » ورفاقه ، فما ان تدفق الجمع على الحجرة حتى اعتلى « العنتيل » مقعده ، وانبرى خطيبا يؤيد هذه الروح التى حدت الى معونة الفقراء على مكابدة الشتاء ، فقوطعت خطبته بالتصفيق الحاد، ونزل عن الكرسى يتبرع بلفيفة انطوت على طربوش قديم جلبه معه من البيت ليجود به ، فشكر له القائمون على موكب المعونة ، وفصلوا عن الحجرة يتلقفون ما يسخو به المتبرعون من هنا وهناك ،

فتبعهم « العنتيل » الى البهو ، وفيما هو يرجع اذ حانت منه لفتة الى الركن الذى يخلد اليه السعاة عند الفراغ من العمل . وكان على احد الكراسى شىء يتخايل،فما ان لمحه « العنتيل » حتى جعل ينتهبه بنظرات سراع ، ثم احس بقلبه يخفق ، ويديه ترتجفان ، وفى هذه اللحظة كان الموكب يتاهب لمبارحة المصلحة ، والناس من خلفه حشود ، فالفى « العنتيل » قدميه تدفعان به الى ركن السعاة ، واذا هو يختطف ذلك الشىء الملقى على الكرسى ، ويعجل به الى الموكب ، وهو يتصايح :

ـ هذه منحة « عم مؤمن » ساعى الادارة ... لقد اوصى لكم بها ... ومن تطوع خيرا فهو خير له !

ودفع المعطف الى الرئيس القائم على جمع المعونة ، فتلقاه بالحمد والثناء ، واصطخبت فى الجو هتافات حارة بحياة « عم مؤمن » ساعى الادارة الهمام !

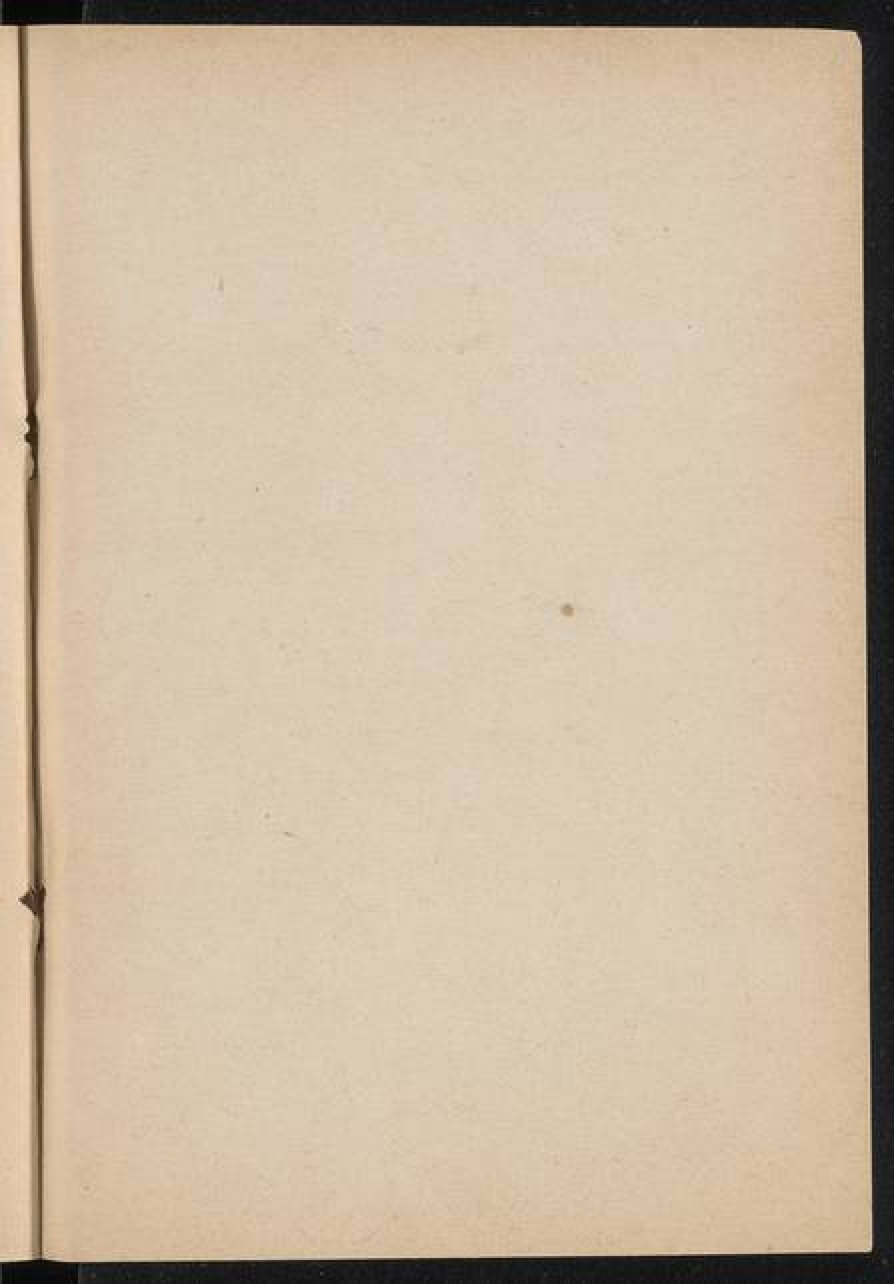
وبعد قليل خرج الساعى من حجرة المحفوظات فى سرداب المصلحة ، وكان يودعها بعض الملفات ، فلمـــا اقترب من بهو الادارة سمع الهتاف باسمه ، فهرول يستخبر عن سر هذا الهتاف ، فانهوا اليه الخبر ، فانسدلت على عينيه غشاوة من دهشة ، وانبعث فى اعقاب الموكب يستنقذ معطفه ، ولكن عز عليه ان يشق الزحام ، فحاول ان يزعق باعلى صوته ، فذابت صرخاته فى عباب الضجيج !

وتراجع الساعى الى ركنه فى البهو ، والدنيا تدور به ، وصوته يختنق على شفتيه ، وما عتم ان تخاذلت اوصاله ،

فتهاوى على الكرسى ، مغشيا عليه ... وفى هذه اللحظة احس الرجل يدين رقيقتين تحيطان به ، وصوتا عطوفا يتحدث اليه ، فرفع جفنيه قليلا يتبين ، فراى « العنتيل » حياله أول من سارع الى نجدته ، والاطمئنان عليه !

وبينما هو على تلك الحال ، كان موكب المعونة يتدفق فى الشارع ، والاصوات تتعالى باسم « عم مؤمن » ساعى الادارة العظيم ، هاتفة بحياته تمجد فيه بطولة الخير والاحسان !







صفحة

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأيف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمدعلى جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأيف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

علمتنى الحياة
لنخبة من الشرق والغرب

فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

مدرسة المغفلين
تأليف توفيق الحكيم

لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب

ذو النورين عثمان بن عفان
تأليف عباس محمود العقاد

محمد الثائر الاعظم
تأيف فتحى رضوان

الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة

الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

الله
تأليف عباس محمود العقاد

عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

نساء النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف



رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى اليها ، كما أن لها خطة مرسومة تسير عليها . فأما الغاية فالمساهمة فى رفع المستوى الثقافى فى مصر والاقطار العربية . وأما الخطة فالتوفيق بين قديمنا وحديثنا . والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغرب : فلا جمود ولا طفرة بل هو تمش وئيد فى سبيل الرقى الوطيد

ودار الهلال تؤدى واجبها بهدوء وعزيمة معا ، مطمئنة الى ما قد أنتجت ، متطلعة الى اتقان ما تنتج ، لا تداهن فريقا ولا تتملق كبيرا ، ولا تتساهل قيد شعرة فيما تعتمده حقا وصوابا

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، واخفاق ما عداه . وهى لذلك لا تحفل بالسفاسف والصغائر ، بل ترحب بكل فكرة نزيهة وتعضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام : الى الامام !

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العـــراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقيــة : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

برقــة : السيد محمد على بو قعيقيص ـ بنغازى ـ ص . ب ١٠٤

البــرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجـــريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجـلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
7, Bishopsthorpe Road, Sydenham, London S.E. 26, England.

316

هذا الكتاب

تحدث الكثيرون عن ادب الثورة ، وطالبوا الأدباء بأن يكون لهم أدب يلائم هذا الحادث العظيم الذى غير مجرى التاريخ المصرى

ولقد قال البعض أن أدب الثورة لا يأتى الا بعد الثورة ، كما حدث فى الثورات التاريخية الاخرى . وكان الاستاذ محمود تيمور اسبق القصصيين الى الانتاج الثائر فألف قصة جديدة هى « ثائرون »

هذه القصة تصور كفاح هذه الفئة الشابة الصالحة التى عاشت فى العهد المظلم السابق ، وكانت نفوسها تضطرم بالثورة على ذلك الفساد الذى كان يجتاح البلاد ، وقد اتاح الله لمصر قادة الثورة الذين عقدوا العزم على الموت فى سبيل الحق أو الانتصار على الباطل فأيدهم الله بنصره

والى جانب قصة « ثائرون » احتوى هذا الكتاب قصصا شائقة اخرى تمثل حياتنا الحاضرة فى صور مختلفة لما تجاوب فى نفس المؤلف من شئون الحياة العامة ، ولما اوحاه اليه وعى الامة فكان من ذلك مجموعة قصصية ممتعة تضيف ثروة جديدة الى فن القصة الحديث